

أحد أعلام المغرب الحديث القائد السيد عبد الله بنسعيد

المتوفى بتاريخ 6 أكتوبر 1923

أبو بكر القادري

لازال تاريخ الحركة الوطنية المغربية منذ نشأتها الأولى لم تكتمل أجزاؤه، ولازال الوطنيون الذين لعبوا أدوارا في مقاومة الوجود الاستعماري بالمغرب لم يُتعرّف إلى جميعهم، فكثير من الشخصيات التي أدركت أخطار الاستعمار قبل أن يخيم بكلّكله على المغرب لازلنا لم نتعرف عليها، ولازال المؤرخون والباحثون الذين يتتبعون الأحداث التاريخية، خصوصا في فترات تواطؤ الدول الغربية على بلادنا المغربية، وتآمرهم الباطن والمكشوف على استقلالها، لازالوا ينقبون ويبحثون لعلهم يستطيعون أن يتعرفوا إلى الشخصيات الوطنية التي كان لها وعي قوي، وإدراك عميق لما يدبره الاستعمار، ويخطط له لاستعمار بلادنا، والسيطرة عليها، وإضعاف نفوذ السلطة الشرعية المغربية التي كان يمثلها السلطان المبايع.

وإذا كان التاريخ كتب صفحات ذهبية عن مواقف بعض الشخصيات الوطنية أثناء فترات الضعف خصوصا بعد وفاة السلطان المولى الحسن الأول وتولية ابنه المولى عبد العزيز، ثم المولى عبد الحفيظ والحركات التي قام بها هؤلاء الرجال للمطالبة بالقيام بإصلاحات أساسية وإدخال تغييرات جوهرية على تسيير شؤون البلاد، وتقديمهم اقتراحات لسلطان البلاد، كي يتدارك الموقف قبل فوات الأوان وحلول كارثة الاستعمار الخفيف، فإن كثيرين آخرين لازلنا لم نتعرف على مواقفهم إلا القليل، ولازالت أعمالهم ومواقفهم مغمورة، ولازالت حياتهم ونشاطاتهم لم يُسجّل منها إلا القليل، ولم يتعرف عليها إلا الأقل من القليل.

والواقع أن فترة ما قبل الحماية الفرنسية كانت تعرف رجالاً وطنيين موزعين

في بعض المدن المغربية، كانوا يتتبعون الأحداث بكل اهتمام، وكانوا يدركون تمام الإدراك المؤامرات التي يدبرها المخططون الفرنسيون للاستيلاء على المغرب وبسط نفوذهم عليه. وكانوا يعملون جاهدين وبالوسائل التي بين أيديهم لعرقلة المخطط الاستعماري وإفشاله وصيانة استقلال المغرب قبل أن يقع المحذور وتحل الفاجعة الأليمة.

ومن جملة هؤلاء الذين تنبه وعيهم لإدراك خطر الاستعمار الفرنسي، وبذلوا النصيحة للمسؤولين كي يتداركوا الموقف، الوطنيُّ الغيور القائد السيد عبد الله بن الحاج محمد بن سعيد السلاوي. فمن يكون عبد الله بن سعيد؟

القائد عبد الله بن سعيد

أسرة بن سعيد وعائلة بن سعيد من الأسر السلاوية العريقة في المجد والعلم والأدب والسياسة، انحدرت من الأندلس في عهد أبي عنان المريني أوائل القرن الثامن الهجري، (الرابع عشر الميلادي). ويذكر المؤرخ الباحث جعفر الناصري أن من مشاهيرهم القاضي أبو سعيد السلاوي العلامة الخطيب الرحالة، والقاضي محمد بن سعيد المنصور السلاوي المتوفي سنة 1113هـ، وهذان العالمان يتحدث عنهما المؤرخ الفذ السيد محمد بن علي الدكالي في نظمه المسمّى بـ «إرتخاف أشرف الملاً ببعض أخبار الرباط وسلا»، فيقول : ومنهم القاضي أبو سعيد :

إلى سلا يُغزى بلا ترديد كان إماماً عالماً محدثاً
راوية للبيان نافثاً... إلى أن يقول :

ومنهم القاضي بها المنصوري ابن سعيد ذوالسنا المشكور
محمد وبسلاً منشأه وطال في نيل العلا مداه
كان إماماً مقرئاً مدرّساً مشاركا مؤلفاً مؤسساً

وذكر الدّحدوح، كما نقل عنه المؤرخ ابن عزّوز، أن عائلة بن سعيد السلاوية تُنسب إلى أبي الحسن ابن سعيد العنسي الأندلسي الملقب بالبلبل، لفصاحته وجودة قريحته والذي وردت ترجمته مطولة في كتاب «نفح الطيب». كما ذكر أن فرداً من عائلة بن سعيد يسمى بالحاج محمد بن سعيد انتقل إلى تطوان عام 1102هـ (1691م) واشتهر عند الناس بـ «السلاوي» وصار أبناؤه وأحفاده من بعده يُسمّون بأولاد السلاوي ومنهم أصهار آل بئونة حفظهم الله.

ويذكر المؤرخ جعفر الناصري نقلاً عن «نفح الطيب» أن نسبهم في أوليتهم يرجع إلى عبد الله بن سعد ابن الصحابي الجليل عمّار بن ياسر رضي الله عنه، كما ينقل عن

ابن حيان في «مُقتبسه» أن عبد الله بن سعيد هذا هو جد بني سعيد أصحاب القلعة الذين منهم عدة رؤساء وأمراء وكتّاب وشعراء.

والده الحاج محمد بن الحاج محمد بن سعيد من أبرز الشخصيات التي كان لها وزن واعتبار لدى رجال المخزن الشريف، سواء في عهد السلطان المولى عبد الرحمان أو في عهد ابنه محمد بن عبد الرحمان بن هشام، أو في عهد المولى الحسن الأول، فلقد تولى عدة مناصب حكومية في عهد هؤلاء السلاطين يتقوون به ويعتمدون عليه في كثير من المهمات. ولقد عهد إليه سيدي محمد بن عبد الرحمان بسفارة إلى ملك فرنسا «نابليون» الثالث صحبة السفير السيد محمد بن عبد الكبير الشركي، حيث حملا إليه خطاباً سلطانياً مؤرخاً بتاريخ 22 ربيع الأول عام 1282هـ، الموافق 15 غشت 1865.

قال المؤرخ الناصري في «الاستقصا»: «وفي هذه السنة أعني سنة اثنين وثمانين ومائتين وألف (1865م) وجّه السلطان رحمه الله قائد جيشه أبا عبد الله بن عبد الكريم الشركي، وعامل سلا أبا عبد الله محمد بن سعيد السلاوي إلى دولة فرنسا بباريس».

«وكان السبب في ذلك ما أخبرني به القائد أبو عبد الله بن سعيد المذكور، قال : كان سيدنا أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمان رحمه الله قد أصبحنا كتابا إلى طاغية الفرنسيين بالكلام معه في شأن هؤلاء النواب الذين يعيشهم إلى المغرب، وأن يكون ينتخبهم من بيوت الأعيان، ومن يتّصف بالتأني وحسن السيرة، والوقوف عندما حدّ لهم. ولما وصلنا إلى باريس، شرحنا ذلك للطاغية المذكور كتابة، ففرح وقابلنا بما لا مزيد عليه من البرور الذي لا نقدر على شرحه، مع أن إكرامنا والله الحمد يفوق ذلك في الصوائر، وكنا توجّهنا ومعنا خيول وغيرها، وأقمنا بباريس شهراً».

«وكان مقامنا بدار كثيرة الفرش والأثاث من الفضة والمعدن، ووكل بنا أمين يصير علينا حسب نظرنا، وقومهم يباشرون فرش المنزل وتنظيفه وغير ذلك، ومعنا أصحابنا وطباختنا، إلا أنهم منعزلون عنا بمحل يخصهم».

«وفي كل يوم تستدعينا الدولة للفرجة ليلا، بمحل يسمى «التيأثرو» وفيه مواظٌ وحكم لمن تبصر، ومتعة للنفس لمن كان حظه النظر».

«وقد أكرمنا الطاغية بمنزله، وأكرمنا الوزراء وعامل البلد والأعيان ليلا وكل واحد يجمع علينا أعيان الدولة وأهل البلد نساء ورجالا، وعادتهم عند دخولك المنزل أن تحيي الزوجة، ومن معها بالسلام أولاً، ثم بعد ذلك تُحيي الرجل».

«ورأينا من الطاغية ووزيره على الأمور البرانية من البرور والبشاشة ما جاوز

الحد، وطلب منا هذا الطاغية أن نبحث له في كتب التاريخ بالمغرب، هل نعثر على تاريخ بناء رُومة، وفي أي وقت بُنيت ؟ واسم بانيتها، ونبحث به إليه».

ولقد أورد الناصري في كتابه، نص الرسالة السلطانية إلى «نابليون» الثالث أثبتها هنا لأهميتها. تقول الرسالة بعد البسملة والحوالة :

من عبد الله المتوكل على الله، المفوض أمره إلى الله، أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين بالمغرب الأقصى، وهو محمد بن عبد الرحمان وفقه الله، أدام الله نصره، وزين بالخيرات عصره، إلى المحب الذي حل من مراتب الرياسة أسناها، وحاز من خصال التقدم أقصاها، فأصبحت ألسن الرؤساء لهجة بذكره، مفصحة بتسليم نتائج فكره، ملك الممالك الفرنسوية، السلطان نابليون الثالث بونابارتي».

«أما بعد، فموجب تحرير هذا المسطور إليكم، لإعلامكم بما تضمنه الفؤاد، من خالص المحبة وحفظ الوداد، وإننا مسرورون بما يتجدد لدينا كل وقت من عقد أسبابها، وما يظهر كل حين من تشييد أركانها وفتح أبوابها فإن محبتنا معكم الشخصية، زادت ما كانت عليه في عهد الأسلاف، وذلك لما جُبلتم عليه من صفاء الطوية، وحسن الائتلاف. فإن القلوب في الوداد تتضاهى، وما بني على أصل وثيق، كان جديرا بأن يعظم ويتناهى، وبموجب ذلك عينا للسفارة إليكم خالنا الأرضي الأنجد القائد محمد بن عبد الكريم الشركي، وهو أحد باشات جيشنا، ومن كبراء رجال دولتنا، مع ما تشرف به من قرابة الرّحم لدينا، ومعه خديمنا الأرضي الأمين الحاج محمد بنسعيد قائد سلا، وهو عندنا أيضا بالمكان المكين، لما تخلّق به من الأدب والعمل الرصين».

«والغرض من توجيههما تجديد العهد بكم، والحرص على موالاة المواصلّة معكم، لما في ذلك من تأكيد أسباب المحبة بين الدولتين وتمهيد طريق الخير بين الإيالتين، والظن بشيمنتكم مقابلتهم بحسن القبول، وتبليغهم في وجهتهم غاية المأمول، جريا على عادتكم القديمة، وسلوكا على طريقتكم القويمة، وقد حملناهم ما في خاطرنا من أمور السياسة الجالبة لمصالح الجانبين، ما يقررونه لديكم ويعرضونه عليكم، ففي أخبارهم كفاية. وأوصيناهم بحسن الاستماع لما تلقونه إليهم والأدب في تلقّي ما تعرضونه عليهم. كما أننا نتحقق أنكم لحسن معاملتكم ومزيد محبتكم، توصون ثوابكم الذين توجهونهم للخدمة بإيالتنا السعيدة، بحسن المعاملة، والتقصّي في ترحيب الصدور والمجاملة والوقوف عند الشروط والعمل بمقتضاها. — والتمام في الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف (1282) الموافق 15 غشت سنة 1865».

ومما ينبغي تسجيله هنا أن الحاج محمد بنسعيد خلّف كُتّاشة صغيرة سجل فيها

تفاصيل هامة عن رحلته إلى فرنسا، يمكن أن يُطَّلَع عليها لدى مَخَلَّفات حفيده المرحوم السيد العربي بنسعيد. كما أنها نُشرت بالكتاب الذي ضَمَّ وثائق الحاج محمد بنسعيد والذي سهر عليه وحققه الأستاذ مصطفى بوشعْرة. ولقد جاء في هذه الكناشة وصف دقيق للرحلة ابتداء من خروجه من مَكْناسَة الزيتون إلى أن وَصَلَ إلى باريس والاتصالات التي قام بها هو والشَّرْكي والمذاكرات التي جرت بينهما وبين «نابليون» ووزرائه، كما تعرضت الكناشة إلى الزيارة التي قاما بها لمعرض باريس والمقابلة التي تقابلها مع وزير البحر وزيارتهما لمتحف السلاح وللسَّيْرُك الذي عبر عنه ب «التياترو» والعجائب التي رأياها فيه، وكذلك زيارتهما للمسرح إلى غير ذلك من الارتسامات التي تشهد للرجل بالنباهة والذكاء وحب الاطلاع والتسامح وعدم الانكماش، فمن ذلك مثلاً وصفه للاقتبال الذي خصصه لهما وزير الحرب فهو يقول عنه : «وبنفس ما دخلنا، إلتقينا بزوجته ورَحَبَتْ بنا، وهو وَكَل بنا كبيراً من العسكر يقرأ العربية مع المسلمين، وأمرهم أن يسيروا معنا لجميع المحلات التي فيها الفُرْجة بالدار، فدخلنا ووجدنا نِسوة كثيرات متجمعات جالسات على شَوَالي، وأخرى قائماتٍ ترقصن مع رجال، كل امرأة قابضة على رجل وهي ترقص معه، حتى ترى عَرَقَه وعرقها منصبيْن على جسدهما من كثرة التعب، والآلات المطربة تضرب، والمغنُّون يترغنون، وأوض كثيرة (أي دور كثيرة) يفعلون بها ذلك، وأن الرجل الأجنبي يأتي لجمع النساء ويختار منه امرأة، يقبض بيدها ويمضيان لحل الرقص يرقصان حتى...»

وتتطرق هذه الرحلة إلى اقتراح بعض الإصلاحات التي يجب أن يهتم بها المغرب كالاهتمام بشؤون البحرية وتكوين الأطُر لها وشراء السفن الصالحة وتوجيه بعثات إلى أرض الإفرنج قصد تكوينها في مختلف المجالات العلمية والصناعية، والعسكرية كالطب والتاريخ والصناعات واللغات، وإصلاح الفلاحة وتعمير الأراضي وجلب آلات الحراثة ومكوّنين عارفين بالإصلاح الفلاحي والاهتمام بالمعادن والاستفادة منها واستدعاء خبراء عارفين لتكوين المغاربة في مختلف هذه الأمور. ثم يقول في هذا الموضوع : «وجميع الأمور بفضل الله تصلح بأرض المغرب، وتشغل جميع الرعية بالكسب والفلاحة والتجارة. ومن لم يكن عنده مال، فبيت المال يقرض وخصوصا للتجار، فهم روح الملك، ينبغي السعي في ترقّيمهم وعلوّ مرتبتهم، فإن في ذلك لمولانا فوائد، منها أن الوارد من سائر الأجناس لا يَحْتَصّ وحده بالمنفعة دون سكان الأرض، ولا محالة أن رب الأرض يُكرم على غيره من الأجنيين. ولا بد للأجنبي من أن يتوقف على رب البلد، ضرورة حين الإتيان في بيعه وشرائه، وأن تكثر التجارة حتى يقل كسب البراني بكثرة

تجار سيّدنا بحيث يرتقون محلا فيه الربح أكثر ويجتهد الناس في أمر الفلاحة والكسب، ويعود خير ذلك كله على بيت المال».

والواقع أن هذه الرحلة في حاجة إلى دراسة دقيقة. فهي تعطينا صورة واضحة عن تفكير الرجل في ذلك الوقت، واهتماماته المتعددة، وتطلعه إلى أن يسير المغرب في النهج الذي يوصله إلى التقدم والتماء في مختلف الميادين، كما تدلنا إلى أن الرجل كان متفتحا كل الفتحة، ويلاحظ ويستفيد، ولا يعبر عن أي تضاييق مما يرى عند الغير، ولو كان غير متفق مع التقاليد التي عليها المغرب، والتي عاش هو في كنفها.

ومن الأمور التي اهتم بها لدى تولّيه عمالة سلا، تنفيذه للقرار الذي اتخذته المولى الحسن الأول من إسقاطه لضريبة المكوس التي كانت مرتبة على الأبواب. فلقد تلقى رسالة ملكية في الموضوع جاء فيها : «خديمنا الأرضي الحاج محمد بنسعيد السلاوي، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله. وبعد، فقد شرح الله صدرنا لرفع العطاء في سائر الأبواب بالمدن والمراسي عن كل ما يمر بها عليها داخلا وخارجا، وأصدرنا أمرنا الشريف لأمين المستفدات بثغر سلا المحروس بالله كغيره، بإنهاض المشتريين لأبوابه، الجالسين للقبض بها، والمتصرفين في شؤونها، لحال سييلهم، وأعمال الحساب مع مشتريها المذكورين على ما تصرفوا فيه إلى يوم الإنهاض، وتوجيه القائمة بذلك لحضرتنا العالية بالله، وغير الأبواب من الأماكن المعطي فيها، تبقى على حالها، حتى ننظر في أمرها بحول الله، وأعلمناك بذلك لتكون على بال والسلام. — في ثاني ربيع الأول عام ثلاث وثلاثمائة وألف (1303)، 9 دجنبر 1885».

لقد كانت دار سكنى العامل السيد الحاج محمد بنسعيد ومحكمته بدرب يسمى بدرب آل جنوي. ويقع هذا الدرب أسفل عقبة المسجد الأعظم، قبالة درب لعلو، وبقيت هذه الدار سكنى ومحكمة لولده الذي تولى العمالة بعده ثم انتقلت إلى حفدته الذين استقروا بها لغاية الأعوام الأخيرة. ويقول المؤرخ سيدي جعفر الناصري أن هذه الدار تاريخية وبها كان يسكن العامل عبد الحق فنيش والعامل من آل الأشقر وغيرهما. ومن الآثار التاريخية بهذا الدرب المسجد والكتاب المعدّ لتعليم الصبيان القرآن الكريم. لقد بقي الحاج محمد بنسعيد عاملا على سلا نحو من اثنتين وثلاثين سنة أي من عام 1278 (1862) إلى 1310 (1892) حيث وافاه الأجل المحتوم.

ولما توفي، تولى بعده منصب العمالة ولده السيد عبد الله بنسعيد، فلقد أعطى السلطان أمره بتعيينه بمجرد وفاة والده، وجاء في ظهير التولية ما يلي بعد الحمدلة والتصلية : «خدامنا الأرضين كافة أهل سلا، وفقكم الله وسلام عليكم ورحمة الله.

وبعد فقد ولّينا عليكم خديمنا الأرضي الطالب عبد الله بن محمد بنسعيد السلاوي وأسندنا إليه النظر في أموركم. فنأمركم أن تسمعوا وتطيعوا فيما أوليناه من الأمر والنهي في أمور خدمتنا الشريفة. أسعدكم الله به وأسعده بكم، ووفق الكل لما فيه رضاه والسلام. في 25 ربيع الثاني عام 1310، 16 نونبر 1892».

ولادته : إزداد السيد عبد الله بنسعيد بمدينة «سلا» عام اثنين وثمانين ومائتين وألف هجرية (1282) الموافق لسنة خمس وستين وثمانمائة وألف ميلادية (1865)، وهي السنة التي سافر فيها والده محمد بنسعيد في سفارة إلى ملك فرنسا «نابليون» الثالث.

دراسته : وعند ما بلغ سن الدراسة أدخله والده إلى كتاب الفقيه السيد أحمد التيّال، حيث تلقى عليه الدروس الأولية في القراءة والكتابة والقرآن الكريم، ثم صار يتعاطى الدروس العلمية والأدبية على عمه الفقيه أبي حامد الحاج العربي بنسعيد والفقيه العالم السيد أبي بكر عوّاد والمؤرخ الشهير أبي العباس السيد أحمد بن خالد الناصري والفقيه العدل السيد لحسن بن إسماعيل. ومن جملة الذين رافقوه في الدراسة الفقيه العدل الشاعر الأديب السيد محمد المنصوري والفقيه الأجل السيد حتّي (بفتح الحاء وتشديد التاء) والفقيه الرزوكي. وانكب على مطالعة كتب الأدب فارتوى من معينها، ولازمها ملازمة مستمرة. يقول الفقيه المؤرخ السيد عبد الحفيظ الفاسي لدى ترجمته وتعريفه بترجمنا في رحلته التي حررها لدى زيارته إلى بعض المدن الساحلية عام 1328 الموافق ل 1910 :

ترجمته في رحلة الفاسي

«عبد الله بنسعيد السلاوي : هو القائد الشهير عبد الله بن محمد بنسعيد، من ذوي الوجاهة والوقار والثروة واليسار، شب في الرئاسة منذ صباه، ورضع لبنان المعارف والآداب، عمدة من عمد المغرب وفطاحله، قلّ نظيره في الاطلاع على ماجريات السياسة وأحوال الدول وقوانينها وحقوقها، ولاسيما عوائد دول المغرب، وأحوال ملوكه وأيامهم، لازم دروس أبي حامد، وأبي العباس الناصري وغيرهما، وخالط كتب الأدب مخالطة جيدة، أكسبته اقتدارا عظيما على الكتابة والنطق وحسن المحاضرة ولطائف المحاوره، يستحضر «نفح الطيب»، ويهتف بغيره من كتب المعارف. ومن جملة الكتب الأدبية التي اهتم بها «مقامات الحريري»، كما اهتم بكتب الحديث وغيرها».

ويقول عنه الدكتور تقي الدين الهلالي في كتابه «دواء الشاكين وقامع المشككين» المطبوع بدار الطباعة الحديثة بالدار البيضاء صفحة 72 و 73 ما يلي :

«ورأيت رجلا يشبهه (أي يشبه الشيخ عبد الله بن بليهد رئيس القضاة في البلاد السعودية) في الأدب والحفظ، وهو السيد عبد الله بنسعيد السلوي، هو أول وطني في المغرب وأول مقاوم للاستعمار، حين كان المغاربة في غمرة ساهين، وكان جمهورهم يعتقد أن مقاومة الفرنسيين كمقاومة البشر للعفاريت أو الأقرام للعمالقة. وقد جاهر بمقاومته ففاه «ليوطي» من بلده «سلا» إلى «وَجْدَة». وفيها كنتُ أتردد عليه، وكان يُسرُّ بلقائي وإذا أبطأت عليه يرسل في طلبي، فرحمة الله عليه. وفي يوم من الأيام قال لي قاضي القضاة: بشر السيد عبد الله بنسعيد بأني تحدثت في قضيته مع المراقب المدني فوعدني بأنه سيسعى في إصدار العفو عنه فما عليه إلا أن يكتب كتابا إلى المارشال «ليوطي» يطلب فيه العفو، فذهبتُ إليه وأخبرته بذلك، فتبسم وقال لي: «إني أتأسف عليك أن ترضى بمثل هذا لنفسك أو لأحد من المواطنين، ماذا أقول في هذا الكتاب؟ أقول إنني مذنب ألتبس العفو من أجنبي مغتصب، لاحق له في الاستيلاء على وطننا ولا في الحكم فيه، فضلا عن أن يكون له حق في نفسي، لأنني أبيت الخضوع وأتملتق للمستعمر الغاصب، ف «اليوطي» هو الذي يجب عليه أن يطلب العفو مني، لأنه اعتدى عليّ واغتصب أرضي، ثم نفاني من بلدي. قال: «ولقد كتبت احتجاجا إلى رئيس جمهوريتهم في كُرَّاس، وبعثته في البريد، فلم يتركوه يصل إليه، ولن أخضع لعدوِّ مُغتصب أبدا. وعلمتُ بعد ذلك أن «اليوطي» زار وجدة، ومر بباب داره فأشير عليه أن يخرج إليه فأبى:

ذي المعالي فيلعلون من تعالي هكذا هكذا وإلا فلا لا
انتهى كلام الهلالي

لقد تعرفتُ على السيد عبد الله بنسعيد وأنا صغير لم أبلغ العاشرة من عمري. ففي مرضه الذي توفي فيه طلب من خالي، وكان صديقا له، أن يأتي بي إليه باعتبار أنه كان صديقا لوالدي رحمه الله، وبالفعل أخذني الخال المذكور لأسلم عليه وكان على فراش المرض، وأذكر أنه سرَّ برؤيتي رحمه الله، وإذا لم تخني ذاكرة الطفولة فلقد رأيته كما وصفه «مولييراس» أستاذ اللغة العربية بوهْران لما زاره بطنجة في 15 يراير 1900 فقال: «إنه بدين واسع ما بين المنكبين، بارز البطن، ينبت شعر أشقر في وجهه العريض عرض وجه الناسك الطيب...»⁽¹⁾

وظائفه: وبعد ما ارتوى من مختلف المعارف، واشتد عوده، واكتسب خبرة في الحياة، أسندت له خلافة والده، فعُين خليفة له في القيادة وكان سنه إذ ذاك ستة وعشرين سنة، وذلك عام ثمانية وثلاثمائة وألف هجرية، ثم عُين عدلا بمرسى الرباط

عام 1309 هـ ولما توفي والده رحمه الله عام عشرة وثلاثمائة وألف، عينه السلطان المولى الحسن الأول قائدا على مدينة «سلا» وأولاد سبيطة وسيدي حمّادي بالغرب. وكانت رتبة القائد تعادل رتبة الباشا أو العامل، وفي سنة 1312 عُيِّن أميناً للمرسى بالرباط مراقبا على إدارة الجمارك ثم سافر إلى مدينة مراكش حيث أسندت له مأمورية بالخارجية مع عبد الكريم بن سليمان وذلك سنة 1314 هـ، ثم تقرر نقله إلى مدينة طنجة سنة 1314 (1893م) حيث عين أميناً بالمرسى مع احتفاظه بباشوية «سلا» ثم رجع إلى مراكش للقيام بمأمورية أسندت إليه تتعلق بإحصاء البناءات المشيدة فوق الأراضي الحُبيسية والخزنية بمراكش. ولم تأت سنة 1317 هـ، حتى عين بدار النيابة بطنجة ثم عين مفتشا بالمرسى المغربية مع السيد محمد بن المفضل بن جُلُون، ثم رجع إلى دار النيابة بطنجة مكان الحاج محمد المقرّي الذي ذهب إلى مهمة بالخارج، ثم أسندت له مهمة النيابة عن الحاج محمد الطريس.

وأثناء تولّيه النيابة عن الطريس زار طنجة أمبراطور ألمانيا «غليوم الثاني» فانتدب لاستقباله، وقابله بحفاوة كبرى، الأمر الذي جعل الإمبراطور ينعم عليه بوسام النسر الأحمر الذي يعتبر من أكبر الأوسمة الألمانية. ويذكر المؤرخ السيد محمد بن عزّوز حكيم أنه يتوفر على عدة رسائل سلطانية موجهة إلى السيد عبد الله بن سعيد من طرف المولى عبد العزيز ومن جملتها رسالة مؤرخة بتاريخ 5 صفر 1318 (الموافق 4 يونيو 1900) يكلفه فيها بالاحتجاج لدى نواب الدولة بطنجة ضد التدخل الفرنسي بالصحراء المغربية⁽²⁾. وفي نفس السنة 1318 (1900) عُهد إليه بمباشرة قضية ماء «بليونش» الذي كان الأسبانيون يريدون الاستيلاء عليه وجلبه إلى مدينة «سبتة» المحتلة. وللباشا عبد الله بن سعيد يرجع الفضل في إحباط المخطط الإسباني، حسب ما تشهد به عدد من الرسائل السلطانية الموجهة إلى الباشا، والرسالة الموجهة من طرف الباشا إلى مولاي عبد العزيز بتاريخ فاتح رمضان 1312 (13 ديسمبر 1900م)⁽³⁾

ولقد كان وقع خلاف بين أعضاء المجلس الاستشاري بدار النيابة بطنجة، فتكلف السيد عبد الله بن سعيد بالتدخل في الأمر والتوفيق بين الأعضاء، (وذلك ما تشهد به الرسالتان اللتان وجههما وزير الخارجية السيد عبد الكريم بن سليمان إلى الباشا بتاريخ 29 شعبان و 18 رمضان من سنة 1318 (22 ديسمبر 1900 و 9 يناير 1901)⁽⁴⁾⁽⁵⁾.

تعيينه في المجلس الاستشاري

وعندما قرر السلطان المولى عبد العزيز إنشاء مجلس استشاري بجانب النائب

السلطاني بطنجة السيد الحاج محمد الطريس، عَيَّن السيد عبد الله بنسعيد أحد أعضاء هذا المجلس الذي لم يتجاوز أعضاؤه سبعة أفراد.

المغرب أوائل القرن العشرين

إن الظروف التي كان يعيشها المغرب أوائل القرن العشرين وأواخر القرن التاسع عشر كانت ظروفًا قاسية، تعددت فيها التآمرات على استقلال بلادنا، وضعفت القيادات الرشيدة المخلصة، وكان المغرب في حالة من التضعع والانهار، ما جعل الفئة الواعية من أبناء المغرب تطالب بإصلاحات جذرية في تسيير البلاد، من شأنها أن تنقذ الموقف، وما جعل السلطان عبد العزيز نفسه يطلب من ذوي الحل والعقد من العلماء ورجال الدولة أن يقدموا إليه اقتراحات تساعد على إصلاح وضعية البلاد، وتخرجها من الحالة المتدهورة التي صارت فيها، فكان مترجمنا من جملة الأفراد الواعين الذين وقع استدعاؤهم من طرف وزير الخارجية إذ ذاك السيد عبد الكريم بن سليمان، ولقد جاء في الرسالة التي وصلته وهي مؤرخة ب 17 محرم 1319 هـ ما يلي : «محبنا وخادم سيدنا الأَرْضِي القائد السيد عبد الله بن محمد بنسعيد، أَمْنُكَ اللهُ وسلام عليك ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله. وبعد، فبوصوله إليك، يأمرُك سيدنا دام علاه، أن تقدم على شريف أعتابه لغرض أكيد، بجرأ من ذلك الثغر الطنجي إلى الجديدي. والكتاب الشريف لأمناء مرسى طنجة بتزويدك وإركابك من ثمة للجديدة بجرأ، تقدم توجيهه لنائب سيدنا الأجل السيد الحاج محمد ابن العربي الطريس مع كتاب أمناء الجديدة بتزويدك وإكراء الظاهر لك لشريف الأعتاب. وقد كتبنا لنائب سيدنا المذكور عن الأمر الشريف بالتعجيل بتوجيهك، ريثما يرد عليك الكتاب الشريف بمضمّن هذا. وعلى المحبة والسلام. في 17 محرم عام 1319. عبد الكريم بنسليمان لطف الله به».

لقد وقع استدعاء السيد عبد الله بنسعيد إلى مراکش للمشاركة في الاجتماع الذي وقع بالقصر الملكي والذي ترأسه السلطان عبد العزيز نفسه وحضره كبار رجال الدولة من وزراء وغيرهم. ونوقش في هذا الاجتماع البرنامج الذي قدمه الباشا بنسعيد، وكان هذا الاجتماع بتاريخ 19 ربيع الأول 1319 هـ، 6 يوليوز 1901 م. ولقد تحدث ابن المترجم السيد الحاج العربي بنسعيد عن سبب هذا الاستدعاء فقال :

«ولما التحق والذي بالأعتاب الشريفة وَفَّق الأمر المطاع، وقوبل من الحضرة المولوية بغاية الحفاوة، ومزيد التكريم والاعتبار، وكان القصد من استدعائه هو النظر فيما وصلت إليه الحالة بالمغرب ونظمه، واعتراه في داخل سياسته المادية والاقتصادية، وما أصابه من التدهور والانحلال في الحكم والتسيير حتى انقلب الرأس على العاقب

بسبب اختلال النظام. وعمَّ الفساد الخلقي وفشا بين الدور والبيوت والمدن والقرى. وظهر وانتشر، وكثرت الرشوة والارتشاء من بين موظفيه وعمَّت البلايا فيه، وانتشرت «الحماية» بين أهله وذويه، وتنافس الناس في اعتناقها، وتشوفت وامتدت اليد الأجنبية العاتية طمعا في بلادنا، واتخذت لذلك الوسائل والحيل، ونصبت الشباك والحبال، واتحدت المطاعم والمصالح الأجنبية، وأكثرت من التدخلات الفضولية الغير الشرعية والقانونية في الأحكام وغيرها وفي الأمور الداخلية، ووجدوا في بعض محمّيتهم من المهالك، وحيث كان الأمر الذي وقع الاستدعاء من أجله هو ما ذكر آنفا، وإعطاء الرأي والاستشارة فيما يصلح الحالة داخليا وخارجيا ويردها لجراها الطبيعي، عقدت اجتماعات بالوزارة الخارجية للنظر والتبصر في نفس القضية، واتخاذ حلول بها، ودراستها من جميع وجوهها، مع من عينوا من رجالات الحكومة، ووقع الأخذ والرد فيها، وبعد المداولة وتبادل الآراء في مناقشتها، صدر الأمر الشريف بأن يكتب كل واحد نظره ورأيه، وما أداه إليه اجتهاده من التفكير في طرق إصلاحها، ويقدمه لمعالى الأعتاب، فكان مما شرح الله به صدر والدي وفتح عليه به، ما يقف القارئ عليه في هذا العرض المتواضع، وهذا نصه حسب ما عثرت عليه في جملة مبيضاته.

اقتراحاته لمعالجة الحالة بالمغرب

«الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.
وبعد، فهذا ما ظهر لكاتبه فيما شرح الله صدر مولانا أمير المؤمنين المخفوف
بعناية رب العالمين من مصالح رعيته السعيدة، أيد الله نصره، وأعلى في الخافقين ذكره
ووفق لما يزان إليه أمره.

الفصل الأول

إنه يمكن تلافي حالة الإيالة الشريفة بدوام العدل والاستقامة وعقد السلم مع
جميع الأجانب لأمد كافٍ والأخذ بالاستعداد من جديد على منوال ما يأتي بيانه :
إن المعارف لدينا أسرع رجوعا وأجدر عرفانا بجميع أنواعها في أقرب زمان
وأسرع مدة لأنها منا أخذت، وإلينا تعود أشرق ما يكون، لكن مع اطمئنان في السياسة
وعدل الرعية وإشعارها بمستقبلها مع الأجانب وتوفير الجبايات، لافتقار الاستعداد
الجديد إلى مدخول له بال به صلاح تلك الحال بعون الله.

إن الأسباب المُعينة بفضل الله كثيرة منها حسن التربية وضعف العوائد وجودة

الصادرات بأنواعها الثلاثة : الحيوان والنباتات والمعادن، وكثرتها وقلة الخارج بنسبة دخل الدولة حفظها الله.

وإن رابطة الإسلام - أعلى الله مناره - من أقوى الروابط وأعلى الأسباب وأمتن الحصون على منع سواها من النفوذ في سياستها وحجرها للغير عن سومها بسوء، وكلما زادت قوة علت سطوتها، وارتقى نفوذها، وما بالعهد من قدم، انظر دولة مولاي محمد بن عبد الله قدس الله روحه.

في اختيار أناس ذوي مروءة ودين متين وأمانة نفوس وسلامة صدور، وشجاعة قلوب، فصارهم رفع الدين وأهله، غافلين عن نفع أنفسهم وعن جاههم بقصد القيام بالوظائف التي يحدث تجديدها أو تجعلهم إعانة لذوي الأعمال المكلفين حينه مع إعطائهم الكفاية وتوعدهم على الجناية بالعقوبة وإن طراً عارض بدلوا.

وإحداث مدارس لتعليم مهمات جديدة يتوقف نفوذ النجاح عليها وعلى معرفتها وذلك من الاستعدادات المأمور بها.

الفصل الثاني

عامل كل إيالة يُدفع له كنّاش لضبط تصرفه مشتملاً على ما يأتي في أموره وما يذّر التي من جعلتها مادفعه كل واحد من الرعية معلماً عليها بخطه أو طابعه في ورقة من كنّاش مقتطع.

الفصل الثالث

يكون بكل بلدة مجلس مؤلف من أهل العلم والمروءة والجدّ والديانة والمعرفة بقصد النظر في مصالح البلد كالأوقاف والأسعار وغيرها، ويرجع إليه كذلك فيما عسى يصدر من العامل لرعيته سواء عامل البلدة أو غيرها من العمال المجاورين لها، وإذا ثبت عنده جور العامل على الرعية بعد البحث التام، يُكتب له فيه فإن أنصف فذلك وإلا فيُطلع به شريف علم مولانا المنصور.

الفصل الرابع

انتخاب أمثال الناس وأفاضلهم المجربين للأمور الذين تطمئن بهم النفس للقيام بهذا الوظيف، ويُعيّن لهم من الأجور ما يكفيهم الكفاية التامة ويقوم برفاهيتهم على ما ينبغي لينقطع تشوّفهم لمدّ اليد مطلقاً، وكذلك يُرتّب لجميع خُدّام الحضرة وكرائها الراتب المعتبر الكافي.

الفصل الخامس

تُحَدَّ إِيَالَةُ كُلِّ عَامِلٍ وَيُحْصَى جَمِيعُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا مِنَ الْأَرْضِ وَالْأَجْنَانِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا بِفَلَاحِينَ وَتَاجِرِينَ وَعَدْلِينَ مِنَ الْحَاضِرَةِ وَأَرْبَعَةً مِنْ مَهَرَةِ تِلْكَ الْإِيَالَةِ بِمَحْضَرِ عَامِلِهَا أَوْ نَائِبِهِ، وَيَتَّخِذُ لِذَلِكَ كُنَاشًا يَشْتَمِلُ عَلَى جَمِيعِ تِلْكَ الْأَرْضِ بِحُدُودِهَا وَكَيْلِهَا لِيَكُونَ الْعَطَاءُ عَلَى نِسْبَةِ مَقَادِيرِهَا فِي الْأَرْضِ الْبَيْضَاءِ وَعَلَى نِسْبَةِ مَا تَأْوِيهِ الْغَلَّةُ فِي ذَاتِ الْأَشْجَارِ.

الفصل السادس

عِنْدَ تَمَامِ الْكُنَاشِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ يُدْفَعُ لِعَامِلِ الْإِيَالَةِ بَعْدَمَا يُوجَّهُ نَظِيرُهُ لَشَرِيفِ الْأَعْتَابِ مَعْلَمًا بِعَلَامَةٍ عَدْلَيْنِ وَالْعَامِلِ.

الفصل السابع

مَا تَنْتِجُ تِلْكَ الْأَرْضِ مِنَ الْغَلَالِ ذَاتِ الزَّكَاةِ الشَّرْعِيَّةِ يُحَازُ مِنْ أَرْبَابِهَا عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ وَيُصْرَفُ فِي مَصْرَفِهِ الشَّرْعِيِّ، وَكَذَلِكَ الْمَاشِيَةُ ذَاتِ الْحَوَافِرِ، فَيَكُونُ مَقْدَارًا بِمَقْدَارِ سَنَوِيٍّ لِكُلِّ رَأْسٍ. وَيُحَازُ مِنَ الْبَوَادِي وَالْحَوَاضِرِ عَلَى السَّوَاءِ.

الفصل الثامن

الرِّبَاعُ وَالذُّورُ وَالْفَنَادِقُ وَالْحَوَانِيتُ، وَمَا فِي مَعْنَاهَا يُعَيَّنُ لَهَا تَاجِرَانِ وَعَارِفَانِ وَعَدْلَانِ مَعَ الْعَامِلِ أَوْ نَائِبِهِ لَتَقْوِيمِ كَرَائِثِهَا وَيَكُونُ الْعَطَاءُ عَلَى نِسْبَةِ كَرَائِثِهَا لَا عَلَى ثَمَنِ رَقَبَتِهَا خَفِيفًا، لِأَنَّ أَهْلَ الْحَاضِرَةِ لَيْسُوا كَغَيْرِهِمْ مِنَ الْبَادِيَةِ فِي الضَّرُورَةِ وَالصَّوْائِرِ.

الفصل التاسع

يَكُونُ الْعَطَاءُ عَامًّا عَلَى جَمِيعِ الْإِيَالَةِ شَرِيفِهَا وَمَشْرُوفِهَا وَالْأَعْيَانِ وَغَيْرِهِمْ.

الفصل العاشر

يُتَّخِذُ بِالْأَعْتَابِ الشَّرِيفَةِ كُنَاشٌ بِتَفْصِيلِ الْإِيَالَةِ السَّعِيدَةِ وَتَقْسِيمِ أَقْسَامِهَا وَبَيَانِ أَرْضِ كُلِّ عَامِلٍ وَمَسَاحَتِهَا وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْقَطْعِ لِيَكُونَ أَهْلًا وَحِجَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهِ.

الفصل الحادي عشر

إِذَا حَصَلَ الْأَمْنُ لِلرَّعِيَةِ تَقَعُ الْحَرِيَّةُ لَا مُحَالَةً فِي الْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ فَتَنْمُو سَائِرُ أَنْوَاعِ التِّجَارَةِ وَأَسْبَابُهَا وَتَسْرِي سَرِيانَ الْمَاءِ فِي الْعُودِ، وَيَسُوحُ إِذْ ذَاكَ لِلْمَخْزَنِ أَعَزَّهُ اللَّهُ تَسْرِيحَ بَعْضِ الْأُمُورِ الْمُنَوَّعَةِ الْوَسْقَ لِأَجَلٍ مَعْلُومٍ عِنْدَ الْاسْتِغْنَاءِ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَضَاعَفُ مَدْخُولُ

المراسي السعيدة وغيرها ويعمر بيت المال السعيد عمره الله ووفره بوجود مولانا أعزه الله ونصره.

الفصل الثاني عشر

إذا فتح الله تعالى وظهرت النتيجة وأراد المَحْزَنُ أعزه الله وسَقَّ عدد من الأمور الممنوعة الوسق مثل إناث البقر والغنم وذُكرانها والقمح والشعير والخيول والبغال، فتُصرَّح لوقت معلوم ويعيَّن القدر المَصْرَح من كل مرسى وتعطى به سنية يكون نصف العدد المصريح لأهل الإيالة، والنصف الآخر للأجانب، ويقسط لهم على التساوي ويكون ذلك لأجل محدود.

الفصل الثالث عشر

إذا أراد سيدنا نصره الله بيع شيء مما ذكر في الفصل قبله يسقط هذا العدد من القدر المَصْرَح ويُباع النصف للرعية والنصف للأجانب كذلك.

الفصل الرابع عشر

تُرتَّب قراءة دُعاء الناصرية : «يا من إلى رحمته المفرّ، ومن إليه يلجأ المضطر...» في جميع مساجد الإيالة بادية وحاضرة بعد قراءة الحزب، ويعطى لمعلمي الصبيان على قراءتها كل يوم مرة بجميع المكاتب قَدْر يسير من الأحباس أو بيت المال لكل معلم، لأن الأطفال قليلو الذنوب وينظر الله تعالى إلى عباده العُصاة بسببهم. فلا شك أنه يُستجاب دعاؤهم ويكفي الله الأمة شرّ الأشرار بسببهم، وكذلك يترتب في كل مدينة من المدن في أربع محلات منها «الحزب الكبير»، و«اللطيف»، و«الوسيط»، و«الشفاء»، ويُرتَّب خراج شهري.

الفصل الخامس عشر

ترتيب العسكري السعيد وجعل المؤونة الكافية له وجعل حراية من مهرة المسلمين وأن يأذن سيدنا أيده الله جميع مَن بإيالته لتعليم العلوم العسكرية ويأمر بتدريب الأولاد على الرماية وركوب الخيل ويؤمر الموسرون بشراء الخيل لأولادهم عوض البغال. وكل من في الخدمة المخزنية يكون يركب الخيل دون البغال إلا لضرورة ويكون من جملة تعليم الأولاد تعليم الرماية والحرب مرة في الجمعة بادية وحاضرة أغنياء وفقراء، ويؤمر كل موسر بشراء قَرس يكون عنده، سواء ركب أم لا.

الفصل السادس عشر

أن يتَّخذ المَحْزَن عددا وافرا من السلاح الجديد من أول درجة وما يكفيه من

الْقَرْطُوش يكون مَذْخَرًا بجزائنه السعيدة، والأولى هو السعي في الاقتدار على صنعه بالإيالة السعيدة.

الفصل السابع عشر

أن يكون مع كل قاضٍ من القضاة في كل محل أربعة من أعيان الفقهاء، ولا يبرم أمراً ولا يمضيه إلا بمشاورة الفقهاء المذكورين وجميع ما كُتِب في اليوم يضع عليه علامته والعلماء معه خطوطاً يدهم، ويكون يجلس للفصل هو ومن معه أربع ساعات في اليوم، وتكون معينة تلك السوائع للخاص والعام، وفي كل شهر يوجه نسخة مما دار في مجلسه لشريف الأعتاب، إذ بذلك تنضبط الأحكام ويقل الجور بل يضمحل بحول الله.

الفصل الثامن عشر

يكون بالأعتاب الشريفة قاضٍ عالمٌ كبير محنَّك ومعه عدد من أعيان العلماء بقصد مراجعة القضايا التي ترجع للحضرة الشريفة ومراجعة الكنائيش التي ترد من الآفاق، ويكتبون ذلك أيضاً ويبقى بمحل خدمتهم في الحضرة الشريفة ويعلمونه.

الفصل التاسع عشر

أن يصدر الأمر الشريف لجميع الإيالة بأن يتركوا أرضاً تصلح للحرثة خالية من الحرث، فمن كانت له أرض يحرثها من ماله إن كان له مال، ومن لم يكن له مال فإن سيّدنا أيده الله يعطيه من زرعه ما يزرع به بلده، ومن العذائر السعيدة الثيران التي تكفيه للحرث بثمن مزيد فيه نحو 25% خمسة وعشرون في المائة، أو 30% ثلاثون في المائة، ويمهله إلى السنة القابلة إن كانت الصّابة، وإلا فإلى السنة التي بعدها، ويضع رسم البلد رهناً أو يعطي ضمّاناً. وهذا ما فتح الله تعالى به مع فرط استعجال، وعسى أن يمنّ سبحانه بغيره ويكون بهمة مولانا محمود العواقب في الحال والمآل. ونرجو الله ببركة مولانا وبركة جده عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام أن يحصل نجاح الدولة المالية وفلاحها، وعناية الله تحرص القوم وتغدو بأعلام النصر والنجاح وتروم. — وكتبه خادم الأعتاب الشريفة محمد عبد الله بنسعيد كان الله له.

ولقد علّق أحد الباحثين على الاجتماع الذي عقده المولى عبد العزيز لدراسة الأوضاع العامة التي كان عليها المغرب إذ ذاك فقال: «في السادس عشر من ربيع الأول 1319 شهدت الإيالة الشريفة حَدَثاً لم يتقدم له نظير في تاريخ المغرب، ففي ذلك اليوم استدعى جلالة السلطان المولى عبد العزيز أكابر رجال الفكر والسياسة والسلطة في قصره بمراكش، وأخذ يدير بنفسه مناظرة حول وضعية البلاد وطرق

إصلاحها، وكان يجلس إلى جانب السلطان وزيره في الشؤون الخارجية ابن سليمان وبعض الوزراء وأركان الدولة.

وأخذ السلطان يسأل الحاضرين عما إذا كان كل منهم قد هيا العرض المطلوب منه وضعه، ثم التفت إلى يساره حيث كان يجلس رجل في الخامسة والثلاثين من عمره، مستدير الوجه واللحية عميق النظرات، بادي الوجوم، وقد اتشح بالكساء الحريري، وكأنه يخفي أطراف وجهه، وقال السلطان للرجل: «القائد بنسعيد، لقد قرأت نصائحك ومقترحاتك لإصلاح الحال، فهلاً سميتها دستوراً لإيالتنا الشريفة؟ قال بنسعيد: «نصر الله سيدي وقواه، ما بيدكم ليس سوى خطوط للإصلاح، وهي مفتقرة إلى مراجعة سيدي وتأنيده». قال السلطان: «أن مقترحات القائد بنسعيد تتكوّن من تسعة عشر فصلاً وهي طويلة، فقد تأخذ منا كل هذا اليوم، وربما الغد أيضاً، إذا مارمنا تحليلها والمذاكرة حولها. وإني لأرى أن نقتصر على الحديث عن بعض الفصول فقط». وبعد أن عدّد الوزير بنسليمان تلك الفصول أخذ القائد الحديث فتحدث عن الفصل الثالث والخامس والعاشر والحادي عشر والخامس عشر والسادس عشر والتاسع عشر. قال الباحث الذي نقلنا عنه التعليق: «وكان القائد يقرأ الفصول بهدوء، ويتولى شرح مدلولاتها شرحاً مختصراً، ولم يكن السلطان ينتبه إلى القائد، بقدر ما كان يحيل بصره في الحضور، يلتمس الانفعالات المتباينة، وردود الفعل لكل من ضمّه المجلس، وأخذ المؤتمرون يديرون مناقشات فيما بينهم وبين القائد الذي كان يتلقى ملاحظاتهم وانتقاداتهم بهدوء، ويحاول أن يقارن بين مقترحاته وبين ما أخذت به دول إسلامية كأفغانستان وتركيا. وأراد الوزير بنسليمان أن يُخرج القائد، فأتجه إليه بالسؤال: «إنك تقول في الفصل الخامس عشر أن يأذن سيدنا جميع من بإيالته لتعليم العلوم العسكرية، وفي الفصل الذي قبله تقول: ترتيب قراءة دعاء «الناصرية»: «يا من إلى رحمته المقر ومن إليه يلجأ المضطر...» في جميع مساجد الإيالة، بادية وحاضرة بعد قراءة «الجزب»، ويعطي لمعلمي الصبيان قدر يسير من الأحباس أو بيت المال. فهل نترك الشبان في المساجد يذكرون الأوراد الناصرية أو نعلّمهم الفنون العسكرية في الجبال والوهاد؟» ويحكى ابن القائد بنسعيد وكان قد سمع هذا الحديث من والده أن القائد انتفض عند سماعه الإشارة من الوزير، وأراد أن يقامر بمنصبه ومستقبله ومصير دستورهِ في سبيل أن يدافع عن كرامته داخل هذا الجمع الذي لا يريد لخططه نجاحاً. قال القائد بنسعيد: «يا سعادة الوزير أين أسطولك بين الأساطيل؟ أين عسكريك وقوتك الحربية بين الدول الطامعة في أخذ بلادنا، إن لم نستمدّه من الله عن طريق الالتجاء إليه، والتوسل إليه بصبياننا وشيوخنا».

وأسقط في يد الوزير، وظل ينتظر رد فعل من السلطان، ومرت فترة من الصمت قبل أن يهتف بنسليمان : «إنني قلتُ ذلك على سبيل الفكاهة والمباشطة، وبالطبع فإنني على فكرتك في الاستعانة بالله وطلب العون منه والاستمداد من حوله وقوته».

ومرت على هذه الاجتماعات ثلاثة أشهر، رغب المولى عبد العزيز أثنائها كما عمل بعدها على أن يطبق ما اقترحه عليه القائد، ولكن الظروف العامة في البلاد واختلاف آراء المسؤولين حولنا دستور بنسعيد إلى الحُلم الجميل الذي لا يمكن أن يتحقق.

ولكن في شهر رجب صدر ظهيران شريفان يعين بمقتضاهما القائد عبد الله بنسعيد لإحصاء الأملاك الخزنية، وتقييد ما بالأبراج من السلاح والذخائر الحربية وذلك في الصورة وآسفي والرباط.

القائد بنسعيد يحذر من تأمر الفرنسيين

في رسالة خطية مكّنا منها ولد المترجم السيد الحاج العربي بنسعيد المذكور نجد الباشا عبد الله بنسعيد يحذر كل التحذير من المطالب التي قدمها الفرنسيون إلى السلطان، منذرا بسوء العاقبة إن انصاع المغرب لها، مؤكدا على ضرورة رفضها جملة وتفصيلا، لافتا نظر المخزن الشريف إلى أن مايقع بين الدول المتحالفة ضد المغرب من اتفاقات ومعاهدات، لايلزم المغرب بشيء ما دام لم يوافق ولم يُستشَر في تلك الاتفاقيات.

والرسالة المذكورة موجهة إلى الشيخ سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني⁽⁶⁾ وهي تدعو وتلح على ضرورة ووجوب النصح لأمر المؤمنين لما فيه حماية بيضة الدين ثم تقول : «لا يخفأك ما فاهت به الألسن، وسطرته الأقلام بين الأنام في شأن أرضنا الطيبة الطاهرة، ومنبت الصالحين، ومقر الموحدين، حتى تشوف إليها العدو الأحمر، ولم يعارضه إلى الآن منا مُنكر، ولازال طمعه يمتد، مادام لم ير الإنكار من أحد، وها هو نائبه الملعون، قد خرج من ثغر طنجة قاصدا حاضرة فاس، معتمدا فيها على بعض الناس، وقد استفدتُ من عدة طرق، بأن له مطالب سيطلب تنفيذها من المخزن الخروس بالله، منها تكليفه بترتيب دخل المراسي وتنظيمها على نمط المراسي الفرنسية نعوذ بالله من شر ذلك، ومنها انتصاب أمين (بل خائن) من بني جنسه بدار المخزن يشارك أمناء الجانب العالي في الرأي والتدبير فيما يرجع للأمور المالية من دخل وخرج، ومنها توظيف واحد من بني جنسه بصفة مستشار ومدير يكون دائما مع المخزن أيضا حل مثل الشعرة تحت اللسان، نعوذ بالله من شر ذلك، ومنها تكليف الباشدور الفرنسي بطنجة بحفظ

الراحة العامة وحراسة البلاد ونواحيها برجال يجلبهم من الجزائر، يكونون تحت أمره ونهيه، وبعد الاستيلاء ووضع اليد على طنجة ونواحيها، يعمم ذلك على بقية المراسي ونواحيها، ثم يدخل بسياسة وخديعة لمراكش بالحُوز، وفاس بالغرب، ومنها تكليف حراية من الفرنسيين بتنظيم جيوش المسلمين، بل بحصر قوة المسلمين وعدتهم بيده لا سنع الله بذلك، ومنها عرض سلف آخر على المخزن لا قدر الله بذلك وصرف القدر المستقرض في إصلاح الطرق والمراسي على يد أناس من الفرنسيين تحت نظر نائبيهم بطنجة، اللهم أكفينا شر ذلك. فهذه هي جملة المطالب التي سيطلبها نائب الأفرسييس من المخزن، وهذه مدة وهو يدبر ويستعد سراً بمشاركة بعض الأشيياء بدار المخزن الذين لا غير لهم على وطنهم ولا على دينهم، اللهم أهلك من رام أو رضي بهلاك المسلمين. واعلم سيدي أن الفرنسيين ليس له قوة ولا قدرة على إلزام المسلمين، وهو مع شدة خوفه منا طمع فينا، بسبب ما رأى في بعض الرجال من الخوف منه. وهل يخاف من الكافر إلا مَنْ كان ناقص دين وضعيفاً في اليقين. وقصد هذا العدو هو التدخل في أمور بلادنا في المسائل المالية والإدارية والعسكرية بوجه مُعين. وإذ ذاك يصعب على المسلمين مقاومته وطرده، بعدما مكّنوه من مال المسلمين وجيوشهم لاسمح الله، ولا شك أنكم سمعتم بالاتفاق الذي وقع بين الإنجليز والفرنسيين فيما يتعلق بأحوال المغرب، وصورته أن الإنجليز قد تسامح للفرنسيين بأن يتقرب من المخزن قرباً خاصاً، وإذا استحصل على امتيازات ومنافع كالتالي أشرنا إليها في المطالب أعلاه وبيناه فإن الإنجليز لا يراحه فيها ولا يطلب من المخزن ما يقابلها على مقتضى شروطاته. وأما الإسبنيول، فإنه لم يسلم للفرنسيين في حقوقه في الغرب المبنية على المعاهدات القديمة، وقد انتصر كل الانتصار لجانب المغرب، وأعانته بقية الأجناس على ذلك. وآخر الأمر التّزماً معاً، أعني الفرنسيين والإسبنيول، على استقلال مملكة المغرب وعدم مسّ أرضه بوجه من الوجوه، وأعلنوه جميعاً بوجه رسمي ليس فيه شك بأنهما قد اتفقا والتّزما الالتزام الكلّي باحترام مملكة المغرب، واحترام السلطنة القائمة به. وإذا حصل أحدهما على امتياز، فلآخر أن يطلب ما يقابله، فتحصل مما ذكر أن وجه الغصب قد وقع الإقرار والالتزام بإبعاده وعدم استعماله بوجه من الوجوه، ولم يبق بيد الفرنسيين إلا استعمال الخدائع والحيل والمكيدة. فتارةً يتهدد وتارةً يرشئ، وتارةً يتذلل حتى يحصل على امتيازات ويبنى في أرضنا حقوقاً تنمو بنمو الأيام إلى أن يعظم أمرها ويصعب فكّها كما وقع ذلك في تونس ومصر، حتى آل مآلها إلى ما ترى، فرج الله على المسلمين. فبمقتضى ما ذكر، وذلك نقطة من بحر الخديعة ومكر الكافرين، فإني أعرض على جنابك بصفتك الشاكي الباكي الحائر هذا الحال⁽⁷⁾، لتنفذ مولانا من شبكات الخديعة

والمكر. فقد أحاطت به أناس لا يعرفون الله ولا الرسول، يحسبهم الإنسان منا وهم منهم، اللهم أكف المؤمنين شرهما، هذا والمشورة واجبة بالكتاب والسنة والعقل، ولذلك نطلب الله أن يلهم مولانا ويسرنا بجمع العلماء والأكابر، ويعرض عليهم مطالب الفرنسييس كتابة، وبعد النظر فيها والتأمل يجيبون عنها، فما وافق مصلحة المسلمين يقبلونه وما فيه ضرر يردونه بالتي هي أحسن، ولا بد ثم لا بد أن يطلب سيدنا من نائب الفرنسييس بأن يقدم جميع مطالبه بالكتابة، ولا يقبل أبدا أبدا أي مطلب كان حقيرا أو جليلا بدون كتابة، والحذر كل الحذر، والاحتراز كل الاحتراز من الخوض مع نائب الفرنسييس فيما اتفق به مع الإنجليز أو مع الإسبنيول، بل مهما تكلم نائب الأفرنسييس مع المخزن في هذا الموضوع، وذكر الاتفاق الذي وقع بينه وبين الجنسيتين المذكورين، إلا ويُجاب بهذه الكلمات الخفيفة على اللسان الثقيلة في الميزان، وهي : «إعلم أيها الباشدور أن الدولة الفرنسية لما أرادت أن تتفق مع الإنجليز أولاً ومع الإسبنيول ثانيا لم تطلب من المخزن أن يدخل في هذا الاتفاق ولا أعلمته بمضمّنه ولا طلبت منه المساعدة والموافقة عليه، فهذا الاتفاق كيفما كانت أهميته، هو كالشيء المعلوم في نظر المخزن، وعليه فإن المخزن لا ينظر إليه ولا يقبله ولا يعتبره بوجه من الوجوه، وإنما الذي يلزم المخزن هو ما يقبله بطيب نفس منه ويتفق عليه بطابعه وخط يده رسميا، فذاك هو الاتفاق الموافق للشرع والقانون، واجب تنفيذه من المومن إذا عاهد وفّى...»

هذا ما استطعتُ الحصول عليه من هذه الرسالة الهامة، ويظهر أن تتمتها ضاعت بين أوراق المترجم، ولم يستطع الحصول عليها ولّدَه الحاج العربي بنسعيد الذي زودنا بها مشكوراً، والرسالة مبعوثة من طنجة عندما كان المترجم بدار النيابة وهي مكتوبة بخط ولده السيد إدريس الذي كان بمثابة كاتب خاص له، والذي تمنى أن نترجم له في مناسبة أخرى بحول الله ومعونته.

إن الممعن في هذه الرسالة التي وجهها القائد عبد الله بنسعيد إلى الشيخ الكتّاني يدرك دون مشقة أن الرجل كان من الوطنيين الأحرار الذين يحرصون كل الحرص على استقلال بلادهم ويعملون بكل الوسائل التي بين أيديهم لإبداء النصيح والتحذير حتى لا تقع فريسة في أيدي الاستعمار الفرنسي، وأنه في رسالته يدرك الأطماع المتعددة لفرنسا في المغرب والوسائل التي تستعملها لبسط نفوذها على جميع مرافق الحياة في بلادنا حتى تصبح وكأنها مستعمرة لها. والرجل يدرك كشخصية سياسية واعية تمام الوعي أن وسائل الاستعمار متعددة متنوعة، وأنه إذا لم يستطع فرض سيطرته عن طريق

القوة، فإنه سيستعمل طرقا ملتوية، وأساليب شيطانية، وإغراءات متعددة، مستغلا بعض الشخصيات المغربية الموظفة بدار المخزن، والتي وصفها بالأشقياء، والتي لا ضمير وطنياً لها، ولا غيرة لها على وطنها ودينها، كما يشير إلى التحالف الفرنسي الإنجليزي الذي بمقتضاه تنازلت فرنسا عن أطماعها بمصر، مقابل تنازل انكلترا عن أطماعها بالمغرب، ويؤكد أن الالتزامات الدولية والاتفاقات الموقع عليها من طرف الدول الأجنبية التي اهتمت بالقضية المغربية، كلها تضمن احترام استقلال المملكة المغربية، ومؤازرة السلطة الشرعية. ولا يكفي بنسعيد بتوضيح الأخطار التي تهدد استقلال المغرب بسبب الأطماع الفرنسية بل يشير بالطريقة التي ينبغي اتباعها للخروج من هذا المشكل العويص الذي لا بد فيه من الحيلة والحذر، بأن يقع اجتماع أهل الحل والعقد من العلماء والأكابر لتقدم إليهم المطالب التي تطالب بها فرنسا والتي يجب أن تكون مكتوبة، فيقع تدارسها بإمعان وتأن ثم يقع الرد عليها حسب ما تقتضيه مصلحة البلاد، وهي التقانة من بنسعيد لها أهميتها التاريخية. فهو يريد أن لا يكون مصير بلاده بأيدي زمرة من الأشقياء الذين لا غيرة لهم على وطنهم ودينهم. بل يجب أن يُعرض الأمر على أهل الحل والعقد من الصالحين في الأمة الذين يكونون في جانب السلطة الشرعية، يتحملون معها مسؤولية القرار، ويدرسون معها الوسائل التي تصون كرامة البلاد وتحفظ استقلالها، وتقيها الأخطار التي تهددها.

وكأني بالبasha بنسعيد كان يتتبع عن كُتب الأدوار التي كانت تقوم بها السياسة الفرنسية لبسط نفوذها الكلي على المغرب، ويدرك مراميها جميعاً.

لقد كانت الحالة في المغرب جد مخيفة، وكانت الأيادي الأجنبية تعمل عملها للزيادة في الارتباك وإشغال الفتن وعرقلة كل إصلاح تريد السلطة الشرعية أن تقوم به، وزاد في الطين بلة أن الوعي السياسي كاد أن يكون مفقوداً لدى مختلف الأوساط، باستثناء قلة قليلة من الأفراد. وكان الرجال المحيطون بالمخزن الشريف يمثلون تيارين مختلفين أحدهما يريد الاعتماد على الأنكليز، والآخر منساق إلى السياسة الفرنسية. كانت السياسة الفرنسية نشيطة للغاية وتريد أن تصل لتحقيق أهدافها الاستعمارية بكل الطرق والوسائل السرية والعننية. أما إنكلترا فكانت منشغلة بحرب «البوير». ورغم ما تطلعهما الشديد لبسط نفوذها الاقتصادي وغيره على المغرب فإنها لم تجرؤ على القيام بعمل جدي يساعد المغرب على التغلب على صعوباته، وإنما اكتفت بتقديم نصائح للمتصلين بها وفي طليعتهم المنبهي وغرنيط وابن يعيش كي يقوم المخزن بإدخال إصلاحات على البلاد من شأنها أن تحسّن سمعته الخارجية، وتقطع الطريق على ما تشيعه فرنسا من عجز للمخزن وعدم محاولته القيام بأي إصلاح ينقذ البلاد من ورطتها.

لقد كان للنصائح الإنكليزية أثر على المسيرين لشؤون البلاد، فقرر القيام بإصلاحات في المواصلات والموانئ والجمارك وتوطيد الأمن وتطوير التجارة، ولكن فرنسا وهي المتتبعة للأحداث، كانت تقف ضدا على القيام بأي إصلاح، خشية أن تقع بواسطة الإنكليز أو غيره من الدول، وهي تريد أن تستأثر بكل ما يخص المغرب من إصلاحات حتى يبقى دائما في قبضتها.

وبالرغم من معاكسة فرنسا وعراقيلها، فقد وقع الاتفاق من رجال الدولة على اختلاف ميولهم على إدخال الإصلاحات الضرورية على جهاز الدولة وأقسموا على أن يبدأوا بأنفسهم ليكونوا قدوة لباقي الموظفين، فأقسموا على أن يمتنعوا عن قبول منحة تسمح لهم بالحصول على ملكية جزء من أملاك المخزن أو أي إنعام أو هدية حسبما كان متبعا من قبل، ومعاقة من يفعل ذلك بإبعاده عن الحكومة وإنزال العقاب به، كما ألزموا الموظفين أن يقسموا على القرآن أن يقوموا بواجبهم بأمانة وألا يذيعوا أسرار الدولة أو يخونوها وألا يقبلوا أموالا أو هدايا من الناس التابعين لإدارتهم، كما ألزموا الباشوات والأمناء والقواد على أن يقسموا بالامتناع عن أي استنزاف كانوا يهتمون بارتكابه في الماضي. وفي الوقت نفسه اتفقوا على تطبيق بعض الإصلاحات والترتيبات الجديدة، كفرض ضرائب سنوية يتساوى في دفعها الجميع، الأشراف ومطلق الناس والتجار والأوربيون و«المحميون» وغيرهم، كما قرروا إجراء إحصاء عام للسكان وتقدير ثروة كل واحد وما يملكه من أرض وعقارات وحيوانات وغير ذلك، وقرروا حرمان القواد ورجال السلطة من الإستهزافات التي كانوا يقومون بها من أفراد الشعب. وقرروا إلغاء الامتيازات التي كانت تمنح لبعض قبائل الجيش والأشراف والطوائف الدينية إلى غير ذلك من الإصلاحات التي كانت تفرضها الضرورة. ولكن المنتفعين من الامتيازات والأغنياء الذين رأوا أنهم سيؤدون الحقوق المترتبة في أموالهم، عارضوا معارضة قوية كل هذه الإصلاحات واستنجدوا ببعض العلماء الذين أفتوهم بأن فرض ضرائب «الترتيب» مخالفة لتعاليم الدين الحنيف كما أن القواد ورجال السلطة وبعض رجال القبائل رفضوا الانصياع لهذه القرارات لدرجة أن بعض جباة الضرائب قوبلوا بالرصاص، الأمر الذي خلق وضعاً جديداً كاد يؤدي إلى مالا تحمد عقباه.

وزاد الأمر خطورة معارضة فرنسا العلنية لهذه الإصلاحات وغيرها، معتبرة أنها من وحي إنكلترا التي تريد أن تشاركها في بسط نفوذها على المغرب، وهكذا قدم الوزير الفرنسي المفوض «سانت رينيه تايلاندييه» (Taillandier) تحذيراً شديداً للسلطان عبد العزيز منذراً له بأن الإقدام على تطبيق هذه الإصلاحات لا يخدم مصلحة المغرب

ولكن يخدم مصلحة أخرى، وأن الإصرار على تطبيقها يضر بمصلحة فرنسا قائلًا : «إن موقف فرنسا إزاء المغرب ليس كموقف الدول الأخرى، فلها حدودها المباشرة والممتدة على مسافات واسعة مع المغرب، كما أن ممتلكات فرنسا تحيط بالمغرب، وينتج عن هذا مصالح مشتركة، وحقوق وواجبات متبادلة، تعطي طابعا خاصا للعلاقات بين المغرب وفرنسا، ذلك لأن كل ما يهدد سلامة الجزائر يهدد المغرب، وكل ما يهدد استقلال المغرب التام، يهدد أيضا الجزائر، وقد شبه «تاياندييه» وضع البلدين بصديقين يملكان بستانين متلاصقين وكل منهما لا يطمع بتركة الآخر، وكل منهما مستعد لأن يقدم لجاره مساعدة ودية، ولكن إذا تنكّب أحدهما جانب الحكمة بأن ترك أجنب يقيمون في بستانه فإنه يخاطر بأن يفقد سيادته عليه وبإثارة قلق جاره، فإنه يجبره على اتخاذ الاحتياطات. وَلَقَدْ «تاياندييه» نظر السلطان إلى أن تدخل الأجنب في شؤوون المغرب يجبر فرنسا على اتخاذ قرارات خطيرة»⁽⁸⁾.

لقد تضاءل تشوّف فرنسا لبسط نفوذها على المغرب، واهتمت الأوساط الفرنسية والتكتلات الفرنسية والمؤسسات الاقتصادية الفرنسية بقضية المغرب اهتماما لا مزيد عليه وكان الجميع متفقا على الإجهاز على بلادنا بطريقة أو أخرى للدرجة أن «يسجونزاك» وهو يعادل في الخبث المكر «دوفوكولد» قال في محاضرة ألقاها في مدينة «رَوَان» سنة 1902 : «لكي ينهار المغرب، ينبغي أن نعمل فيه الفأس، وهذا القرار العنيف ليس فيه ما يخيفنا»⁽⁹⁾ وجاء في خطاب ألقاه «أوجين إثنين» سنة 1903 أنه «يوم تُحلّ المسألة المغربية فإن فرنسا تكون قد انتهت في إفريقيا عملها الاستعماري... وستكون إمبراطوريتها كبيرة بما فيه الكفاية لارضاء نشاطها، فستجد هناك الغذاء الضروري لرؤوس أموالها التي تستخدمها بعض الأحيان بصورة فريدة، ومراكز لأبنائها الذين لا يجدون لهم مراكز في الوطن الأم، وأسواقا لبضائعها، ومواد أولية لصناعتها»⁽¹⁰⁾.

وكتب «رينيه ميه» وسبق أن كان مقيماً بتونس يقول :

«إن المغرب بالنسبة للاستعمار الفرنسي احتياطي لا نستطيع أن نسمح بانتقاله إلى يد أخرى، فالتجارة الأفرنسية مع المغرب واسعة». ثم يقول في صراحة متناهية : «إن دور فرنسا الحقيقي يقوم على أن تقول بوضوح ما تريد وما لا تريد، وأن تستفيد من كل الحقوق الناجمة عن جوارها للمغرب، ومن كونها دولة إسلامية ؟ (كذا) كبرى، وأن نضيق النطاق على السلطان، وأن نقيم معه وجهها لوجه في عاصمته القديمة الدينية، وأن نفرض عليه تحولا يجعله صديقا أكثر ما يمكن».

هذه الأجواء السياسية الخطيرة التي كانت تحيط بالمغرب، لم يكن يدرك أخطارها إلا القليلون جدا من أبناء البلاد، ومن جملتهم مترجمنا القائد عبد الله بنسعيد الذي أدرك بحسه السياسي وروحه الوطنية ما تتعرض له بلاده من أخطار إذا لم تتدارك الموقف بما يجب اتخاذه من قرارات حاسمة تصون كيان البلاد وتحفظ استقلالها، وتعرقل المشاريع والمخططات التي يقترحها المستعمرون الفرنسيون، وهو في هذا يلتقي مع الاتجاه الذي كان يتجهه رئيس الوزراء فضُول غزنيط الذي كان يرى الصمود والمقاومة ضد كل تدخل أجنبي ومع رجال الحركة الدستورية وجماعة جريدة «لسان المغرب» وغيرهم من الفئات الواعية القليلة، وأن الحل الصحيح لمقاومة التسلط الاستعماري هو تزعم السلطان الشرعي لمعركة الجهاد، وعمله على أن يلتف الشعب جميعه نحوه وقيامه بالاصلاحات الجوهرية الضرورية مستعينا بكل الدول التي تود أن تبذل مساعدتها للمغرب، وتنظيم مشكلة الجمارك بمساعدة موظفين أوروبيين من جنسيات مختلفة، حتى يسد المطريق على فرنسا التي تعمل على أن تستبد وحدها بالإشراف على الجمارك كضمان للقروض التي أقرضتها للمغرب.

لقد كان الواعون المشفقون على مستقبل بلادهم حريصين كل الحرص على أن تقوم السلطة الشرعية بواجبها كاملا، ترفض الرفض القاطع للمطالب التي تقدمت بها فرنسا لملك البلاد، ضمانا للاستقلال وحفاظاً على الكيان.

حول اجتماع بالقصر الملكي بفاس

وهذه ملخص لرسالة وردت من فاس مكتوبة بخط المرحوم الطاهر بن العربي⁽¹⁾ كما ذكر لي ذلك الحاج العربي بنسعيد، وجدها أيضا ضمن أوراق والده السيد عبد الله بنسعيد.

تقول الرسالة : «وبعد، فليكن في كريم سيادتكم هذه البشارة العظيمة الجليلة أن سيدنا أعزه الله قام على ساق الجد والاجتهاد وظهرت منه قوة عجيبة لم .. (كلمة غير واضحة) الظنون بها في جانب الفرنسيين اللعين ومطالبه - فقد كنت أخبرتكم قبل هذه البوسطة بما صدر بالأعتاب الشريفة، وبما وقع في الجمع برؤوس الوزير مع الفرنسيين، فإن سيدنا نصره الله أمرهم أن يسمع منه ولا يجاوبه أحد، فلم يقصر في التطاول والجسارة والطيش والقوة، حتى قال لهم انما أنتم صرتم من (2 ..) وسلم جميع الأجانب التصرف بالمغرب، وإن لم تساعد على الشروط المطلوبة، فإن يد الفرنسيين طويلة عليكم، وقد انتخبكم السلطان من الثغور لتوافقوا على هذه الشروط، فأجيئوني عن ثلاثة شروط وسلموها لنبيّن لكم غيرها. وأطال في الجسارة على عادته،

نطلب الله والرسول ﷺ وآله وبركة مولانا الشيخ ومولانا الوالد رضي الله عنهم أن يجعل كيدهم في نحرهم، وأن يرجعه بالنكال والوبال وعلى أسوء حال. حاصِلُه فظنَّ جميع الناس الذين بالجمع من العلماء والوزراء والوفود وأرباب الصدور، أن الأمر تم، وساعده على المطالب، فلأجله قاموا حيارى وغابوا وحصل لهم الدهش بالبكاء والنحيب، ثم طلب الوزير أن يمهّلهم في الجواب. حاصِلُه فلما بلغ الخبر لسيدنا أيده الله بما صدر من الفرانسييس، اغتمَّ غمًّا شديدًا من كَلَمه وتطاوله وافتخاره بالمحال الذي لا يقبل شرعا ولا طبعًا، ثم إن يوم الأحد تاريخ 21 منه اجتمع الجمع بالعتبة الشريفة الوفود وأرباب الصدور والعلماء والقضاة، وسيدنا الشيخ رضي الله عنه جالس والقضاة والوزراء وسيدنا نصره الله قريب منهم فقال بأعلى صوته القائد المشهور، يقول لكم سيدنا أعزه الله ونصره، ان ما صدر به العدو الكافر من الطيش وسوء الكلام، فإنه أساء الأدب علينا بقوله يد الفرانسييس طويلة علينا، وسلّم له الانجليز وغيره من الأجانب، فنحن ملوك سَلَف عن خلف، ولا كانت دولة المغرب تحت جنس!... ليس له يد علينا حتى يسَلّمنا إليك، فنحن دولة مستقلة مثل جميع الدول، فلو كان الإنجليز ساكنًا تحت دولته ثم سلّمنا إليه يكون لنا ما يكون، فنحن والحمد لله دولة مستقلة مخصوصة من قديم الأعصار، يتصرف ملوكنا كيف شاءوا بأنواع التصرفات وأما جميع ما طلبه لم نساعده على شيء أصلا، هي مقيدة تسعة شروط، وكل شرط تحته مطوية، فقد أجبته عنها بسياسة ولطافة فقرأها، ومن ظهر له شيء فليكتبه فإنني وسيدنا سواء في هذا الأمر، ومن أراد أن يتكلم فليتكلم، فكلنا سواء، وهذا هو العمل والمعوّل عليه أحبّ أم كره، وإن أراد غير هذا فنحن فيما يريد بحول الله (كذا) وقوته فأني لا أحول على هذا النظر أصلا. حاصِلُه ظهرت من سيدنا أعزه الله قوة عظيمة واجتهاد في اجتماع كلمة الاسلام، وفرح أهل الجمع ووقع لهم من السرور مالا يعلمه إلا الله، فمن شدة فرحهم كأنهم دخلوا الجنة وتعجب كل العجب من... وحسن ألفاظه وقواعده في الجواب عن الشروط كما نبين بعضها يسرته. ولما تلاقى الفرانسييس قبل هذا ودفع الشروط لسيدنا أيده الله أرسلها لسيدنا ومولانا الشيخ رضي الله عنه، فأجاب عنها بكراس مملوء بالقواعد والسياسة والقوانين، ثم أكد عليه بمطالعتها، فكان سيدنا الشيخ رضي الله عنه يحضه على مطالعة تلك الفصول إلى الآن، فلما تم المجلس وكان هو المتكلم والفقهاء القاضي سيدي عبد الله بن خضراء الشريف أن سيدنا الشيخ يطلع يوم تاريخه⁽¹³⁾... ليتفاوض مع سيدنا في بعض الشروط وما يخاف إليها، وقد وقع الجمع البارحة بروض الوزير بالمناظرة وجميع المكلفون (كذا) والعدو معهم، فنطلب منهم الجواب عن الثلاثة شروط، فقالوا له بيّن لنا جميع مطالبك وشروطك لنجاوبك

عن الجميع، وقد ورد «جوازيط» يخبر فيها أن الفرنسيين فيه حمق وطيش لكونه ظهر له أن المغرب مثل تونس فيه غير النسوان وأن دولة المغرب قوة وفيها الرجال والعربان والشجعان، وقد طلع الباشدور لفاس وقد أهمله ولم يلتفت إليه ولم يلقوا له بال، ووقع في طي الإهمال، لكونه على ساق الجد والاجتهاد، والله يا إخواني لو كان دام ذلك أسبوعاً، لقامت الفتنة من كل ناحية وجانب، كما قال الشيخ رضي الله عنه، إن جميع من هو معكم من القبائل، كل واحد يهرب لقبيلته، ويخبرهم بالواقع وتقع الفتنة في أقرب مدة ولا يبقى معكم لاجيش ولاسلطان وتبقوا مثل النساء لا قوة لكم. ولم يقصّر في الكلام، فصاروا يقبلون يديه ويطلبون منه الدعاء، ولم أقدر أن أصف لكم ذلك، فقال لأرباب الصدور وأقر له جميع العلماء أعاد الله علينا وعليكم من بركاته».

هذه هي الرسالة التي وجدتُ بين أوراق السيد عبد الله بن سعيد، ويظهر أنها كتبت له ولأصدقائه من المنتمين لطريقة الشيخ الكتاني وبغض الطرف عما فيها من أخطاء (وبركات) فإنها تصور الحالة التي كان عليها الناس في ذلك الظرف من اشفاق على مستقبل المغرب وخوف من أن يقع الانصياع للمطالب الفرنسية كما أنها تكاد تكون جواباً عما طرحه السيد عبد الله بن سعيد في رسالته التي بعثها من نيابة طنجة، والتي حذر فيها من الوقوع في الفخ الذي يضعه الفرنسيون للمغرب، والمكاسب التي يودون الحصول عليها والتي تتجلى في مطالبهم وشروطهم، وتدخلهم المباشر في تسيير شؤون المغرب.

المتآمرون على المغرب يتخوفون من بنسعيد

إن النشاط السياسي وتبع الأحداث، ونصح المسؤولين وتحذيرهم من الانصياع لأساليب الاستعماريين، جعل كلام الذين كانوا يتربصون الدوائر للمغرب سواء منهم الانكليز أو الإسبانيون وبالأخص الفرنسيين، ينظرون شزراً إلى القائد عبد الله بن سعيد ويعتبرونه من ألد أعداء الاستعمار، والعاملين على إفساد خططه، فلقد كانوا يرفعون التقارير تلو التقارير لحكوماتهم ضده وضد تحركاته، كما كانوا يوعزون إلى المتعاملين من المغاربة معهم بأن وجوده ضمن المسؤولين في نيابة طنجة من شأنه أن يضر بالعلاقات بين المغرب والدول الأجنبية الأمر الذي كان له أثره على دوائر المخزن والذي أدى على ما يظهر إلى إعفائه من منصبه بدار النيابة بظهير عزيزي شريف مؤرخ بفتح ربيع الأول عام 1323 الموافق 6 ماي 1905 والذي جاء فيه : «وبعد، فقد أرخناك من كلفة النيابة بطنجة فأمرك أن تتوجه لحل خدمتك بسلا حرسها الله لمقابلة ما أنت مكلف به هناك، ويؤكد هذا ما جاء في كتاب السيد ابن عزوز حكيم من «أنه يتوفر

على عدة تقارير سرية، كان يوجهها الوزير الإسباني المقيم بطنججة إلى حكومته خلال الفترة التي قضاها الباشا بنسعيد بدار النيابة بجانب الطُّرَّيس، وكلها تشير إلى أن الباشا كان يقف ضد الأطماع الأجنبية عموما والفرنسية والانجليزية بوجه خاص⁽¹⁴⁾ لقد نعت «أوجين رينيو» وزير فرنسا بطنججة بأنه ماكر ومتعصب. وقال عنه الكومندان «فورنيي» رئيس البعثة العسكرية الفرنسية أنه معروف بكرهيته للأوربيين⁽¹⁵⁾.

عملاء يتآمرون مع الاستعماريين

إن الأيادي الأجنبية كانت تعمل عملها داخل المغرب وخارجه وكانت مع الأسف الشديد تجد بعض العملاء الذين لا ضمير له والذين أشار إليهم القائد عبد الله بنسعيد في تقريره المرفوع إلى الشيخ الكتاني ويتراءى لنا أن نشاط هؤلاء العملاء بإشارة من مسيرهم الفرنسيين كان متوجها أيضا إلى تصفية المعارضين لخططهم وإزالتهم من طريقهم وتنحيتهم من كل مسؤولية كيفما كان نوعها حتى يخلو لهم الجو، ويفسحوا المجال لما يبيته الاستعمار الفرنسي والانجليزي. ولسنا نشك أن إعفاء السيد عبد الله بنسعيد من دار النيابة بطنججة كان بتأثير من هؤلاء وأنهم لم يكتفوا بإعفائه من النيابة حتى صاروا يدبّرون ويمكّرون حتى ينحى من سلطة باشوية «سلا» التي بقي محافظا بها منذ تولى النيابة عن والده رغم ما أسند إليه من وظائف أخرى سواء بطنججة أو غيرها، ولقد كان لتخطيطهم ومكرهم أثره لدى دوائر الخزن، حيث لم تمر إلا ثمانية أشهر من إعفائه من نيابة طنجة حتى أعفي من منصبه بباشوية سلا، وذلك بمقتضى الظهير المؤرخ برابع عشر ذي القعدة 1323 الموافق لـ 9 يناير 1906. وهكذا صار يباشر أشغاله الخاصة ويوالي اجتماعاته مع خلصائه وأصحابه، متتبعا للتطورات التي كانت تقع بالبلاد والتي أدت إلى قيام المولى عبد الحفيظ ضد أخيه عبد العزيز ومبايعته من طرف العلماء والأعيان والأشراف مشرطين القيام بإدخال الإصلاحات الضرورية على تسيير البلاد ومقاومة التدخل الأجنبي، فكان من جملة المبايعين له والملتفين حوله، وضمن الوفد الذي أتى من طنجة ليقدم البيعة بتاريخ 25 رجب 1326 هـ الموافق 23 غشت 1908 م⁽¹⁶⁾. وذكر لي ولد المترجم السيد الحاج العربي أن والده ذهب بعد مبايعته إلى فاس للسلام على المولى عبد الحفيظ، وأنه عُيِّن خليفة للجَبَّاص الذي كان عُيِّن نائبا بطنججة بعد وفاة الطُّرَّيس وبقي في النيابة من عام 1326 هـ إلى 1928 م.

المترجم يُعيِّن خليفة للنائب السلطاني بطنججة

لقد كان تعيين المترجم في نيابة طنجة كخليفة ومستشار للنائب يعتبر في الواقع التفاتة من المولى عبد الحفيظ الذي كان يرى في المترجم مثال الوطنية والاستقامة والغيرة

على البلاد، ولكن النائب الجبّاص لم يكن راضياً على هذا التعيين، بل كان يرى في تعيينه للمرة الثانية إزعاجاً للفرنسيين والأنجليز الذين كانوا ينظرون إليه كعدوّ محارب لخططهم فكتب بذلك إلى المولى عبد الحفيظ، ولكن السلطان عبد الحفيظ أجابه بالرسالة الآتية المؤرخة بـ 15 رمضان 1326 هـ الموافق لـ 11 أكتوبر 1908 م.

«خديمنا الأرضي الكاتب محمد الكبّاص، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله، ويعد، فقد كتبنا لك في غير هذا بما اقتضاه نظرنا من توجيه خديمنا الأرضي الطالب عبد الله بنسعيد السلاوي ليكون خليفة في عمل النيابة وسائر شؤونها وجميع متعلقاتها، وزدناك هذا تأكيداً على حسن المصارفة معه والمجاملة لكونه من بيوتات الخدمة، ومن أهل الديانة والصدق ليكون تعامله بمزيد الاعتبار، كما هو معتبر عند جانبنا الشريف، ولا نوافق على عدم إطلاعه على شيء من الأمور، ولا إخفاء شيء عنه، فإننا لم نخرج له يدا من أشغال دار النيابة كلها والله يعينكما والسلام».

إن هذه الرسالة المملّكية الحفيظية تضع النقط على الحروف وتلمح إلى أن الجبّاص كان يريد أن يتعامل مع بنسعيد معاملة فيها كثير من الحذر ولربما لا يُطلعه على بعض ما يروج في دار النيابة وما يرد عليها من أنباء ومشاريع ومخططات أجنبية. وهي تؤكد على ضرورة إطلاع بنسعيد على كل ما يروج من سائر الشؤون وجميع المتعلقات، وتوصي بضرورة التعامل معه معاملة صادقة مخلصة لكونه من أهل الدين والصدق، وكفى بها شهادة من سلطان بُويغ على أساس إصلاح البلاد ومقاومة التدخل الأجنبي فيها. إن الكبّاص عندما طلب من المولى عبد الحفيظ الاحتياط في التعامل مع المترجم، كان ولا شك واقعاً تحت تأثير الفرنسيين وغيرهم الذين كانوا يرون في القائد بنسعيد العدو الألد لمخططاتهم، الأمر الذي يؤكد الخطاب الذي وجهه الوزير الفرنسي المقيم بطنجة المسيو «رينو» إلى وزير الخارجية الفرنسية يوم 28 رمضان 1326 هـ (24 أكتوبر 1908 م) والذي جاء فيه : «من الواجب أن ألقت النظر إلى وصول بنسعيد النائب الجديد المفروض على الكبّاص من طرف مولاي عبد الحفيظ، والذي أسند إليه حق عام في مراقبة سير الإدارة الخزنية كدليل يبين على النوايا الحقيقية للسلطان الجديد، لقد أقصى بنسعيد منذ ثلاث سنوات بطلب من نيابتي فرنسا وإنكلترا، ويُعتبر لدى الجميع كمتعصب، ولقد أقرّ المولى عبد الحفيظ وجوده بالرغم عن الكبّاص الذي وُبح لأنه أعلن تأثيره السيء الذي ترتب عن تعيين بنسعيد في الأوساط الأجنبية».

لقد بقي المترجم بدار النيابة بطنجة لغاية 1328 هـ/1910 م، ولعلّه بضغط من الفرنسيين، اقترح عليه أن ينتقل إلى الصّورة كبّاشاً، فاعتذر عن هذا الوظيفة،

رسالة إلى المقيم العام الفرنسي الأيوبي

ونجد في بعض الأوراق التي احتفظ بها ولده الحاج العربي مسودة لرسالة كان وجهها للمقيم العام الفرنسي بالمغرب أثناء نفيه بالجديدة، وهي مؤرخة بـ 17 يوليوز 1917، ويقول فيها : «إني منقول للجديدة ظلماً باسم دولة فرنسا الفخيمة المعروفة بعذالتها وحمايتها للإنسانية وحفظ الحقوق الإنسانية، ثم يقول : إن النفس الفاضلة لا تحتقر أحداً صغيراً كان أو كبيراً، لأنه نقص في حقها، فإن كنتم قصدتم بنفسي ظلماً تأديباً من يشجع ذلك (كذا) فإنه غلط، بل أعدمتم الناس الثقة بكم، ولم يبق لأحد من المغاربة ثقة بكم، وغفلتم أن الظلم لا يترتب فيه صلاح أبداً، لأن الله لا يحب الظلم، وإن كنتم قصدتم بنفسي التشفي في ألمانيا، لأنني كنت محمياً بها، فأنا لست بألماني، وإنما أنا مسلم مغربي، ضعيف القوى ملازم لمصالحني وشؤوني لا أتدخل في سياسة. وألمانيا بينكم وبينها ميادين حرب سجال، وأنتم قادرون عليها، ومستعدون لمقابلتها، أما أنا (فسلاوي طالب عافية) كما يقول المثل السلاوي، وإنما اتخذت الحماية الألمانية لأجل الظلم الذي هو محرم في جميع الملل والنحل والأديان، ولا ظلم أعظم من هذا الذي لحقني، بسبب شخصيات بعض رجال الدولة الفرنسية الفخيمة حامية العدل والحرية التي هذه من ثلاث سنين وهي تقتل رجالها ورجال مستعمراتها وحلفائها لحفظ الإنسانية وقتل الظلم والاستبداد...» إلى أن يقول : «أناشدك الله، هل هذا من العدل الذي ينشر بالجرائد والمنتديات السياسية والمحاكم الشرعية صباح مساء، حاشا وكلا أن ترضى دولة العدل والإنصاف هذا، وإنما بعض صغار رجالها الموظفين يفسدون السمعة للدولة، ويغيرون عليها قلوباً هي أحرص على جبرها، ويظنون أن المغاربة لا يفهمون ولا يعقلون بل المحتقر منهم يفهم العجائب والغرائب، وإنما يرضون بالرضوخ توقياً للغالب من تحت القدرة والسيطرة. السياسة هي أن يعامل العدو بالإحسان حتى يصير صديقاً. أنظر لمعاملة الدولة للأمير عبد القادر الجزائري الذي نجح فيه إحسانها ووقوفه معها غاية الوقوف ومع رعاياها في ثورة بيروت، وأما مقابلة الأعداء بالعداء، فأمر مشترك فيه الإنسان والحيوان. عجباً لدولة فرنسا، اتخذت يوم حريتها عيد 14 يوليوز، وتمنع الناس باسمها من حريتهم. لا، لا، لانتة عن خلُق وتأتي مثله».

وفي ختام الكتاب المذكور يقول : «أطلبُ من سيادتكم أن تنظروا بعين العدل والانصاف حتى أرجع لأولادي عاجلا ولك الجميل وإن لم يتيسر لك، فأجبنَا أن ترفع كتابي هذا مع الكتاب قبله على يدك لمجلس الوزراء الأعلى وللمجلس السيناتور وللمجلس الشرعي بباريس للنظر في أمري، فإنكم لا توافقون على ظلم أحد، وقد كُنْتُ كتبت لكم بمثله في 16 أبريل 1916».

خمس سنوات منفيًا بالجديدة

مكث منفيًا بالجديدة خمس سنوات كاملات توثقت فيها علاقته مع بعض الشخصيات المرموقة، ويأتي في طليعتها الفقيه الرافعي الشخصية العلمية المرموقة، والذي كان يقضي معه كثيرا من الأوقات في المذاكرة العلمية والذي أجازته إجازة علمية لم أتمكن من الحصول عليها لحد كتابة هذه السطور.

رجوعه إلى مسقط رأسه

وخلال سنة 1919 أُذن له بالرجوع إلى مسقط رأسه «سلا» فاستعاد نشاطه واتصالاته مع أصدقائه وأحبابه الذين كانوا يعتبرون منزله ناديا يلتقون فيه ليتبادلوا أطراف الأحاديث المتنوعة، ومن جملتها بالطبع متابعة ما يجري بالبلاد، وما يقع فيها من أحداث.

الاحتجاج ضد ضريبة «الكياب»

وخلال سنة 1339هـ (1921) وقعت أحداث ومظاهرات في كل من «سلا» والرباط تسبب فيها فرض ضرائب على التجار والصناع ورأى فيها المهتمون بقضايا أبناء وطنهم إجحافا وظلما للصناع والتجار فرفعوا احتجاجات ضده الضرائب، وكان على رأس المحتجين مترجمنا بنسعيد، وكوّنوا وفدا متركبا من بعض الشخصيات السلاوية المرموقة كان منهم المرحومون السادة : (1) سيدي احمد بن الحارثي حجّي والد المرحوم السعيد حجّي، (2) أبو بكر بن الحاج الغالي المريني، خالي ووالد الفقيه العالم المرحوم الحاج محمد المريني، (3) وسيدي أحمد الطالبي والد الوطني الغيور المرحوم الحاج محمد الطالبي والذي كان لدى مقام السيد عبد الله بنسعيد بطنجة ينوب عنه في باشوية «سلا». ولقد استقبل الوفد المذكور من طرف حاجب السلطان السيد أحمد أعقابو، وقدموا له احتجاج مدينة «سلا» ضد فرض هذه الضريبة التي اعتبروها مجحفة. ويقال حسب رواية الحاج العربي بنسعيد إن هذه الاحتجاجات كانت بإشارة من وزير العدل المحدث الشهير الشيخ أبو شعيب الدكّالي. ولم يكتف السلاويون بتقديم العرائض

الاحتجاجية ضد فرض الضرائب، بل نظموا مظاهرة شارك فيها نحو الثلاثمائة شخص تجمعوا في زاوية سيدي أحمد بن عبد القادر وانطلقوا منها إلى منزل الباشا الصبيحي، وكان المتزعم لهذه المظاهرة الأديب الكبير الشاعر السيد عبد الرحمن حجي الذي ألقى عليه القبض خلال المظاهرة ومكث في السجن خمسة عشرة يوما.

النفي إلى وجدة

لقد اعتبر الفرنسيون السيد عبد الله بنسعيد مسؤولا أساسيا عن هذه الحركة الاحتجاجية فنفوه للمرة الثانية إلى مدينة «وجدة» حيث بقي منفيا فيها عامين من سنة 1339هـ (1921) إلى سنة 1341هـ (1923م) حيث وقع إطلاق سراحه. كما نفي المرحوم الحاج بنعيسى لعلو إلى مدينة «آسفي» ويحكى ولد المترجم الحاج العربي بنسعيد الذي صاحبه إلى منفاه بوجدة، أنه حين إلقاء القبض عليه، أخذوه إلى منزل الباشا الصبيحي، وأخبروه بأن قرارا اتخذ بنفيه إلى وجدة ولكنه رفض رفضا قاطعا الخضوع للقرار الفرنسي، وأصر على عدم مغادرة منزل الباشا إلى أن يصدر ظهير سلطاني بنفيه، لأنه يرفض القرارات الفرنسية ويعتبرها غير قانونية ولما حاول رجال الإدارة الفرنسية نفيه بالقوة، تعرض الباشا الصبيحي وأصر على أن يبقى بمنزله إلى أن يقرر المخزن في شأنه، وهكذا مكث ستة أيام بمنزله إلى أن وقع نفيه حسب ما قررت الإدارة الاستعمارية.

بعدما وصل إلى مدينة «وجدة» استقبله باشا المدينة السيد أحمد بن كروم استقبالا طيبا، وأضافه في منزله ستة أشهر كاملة، ريثما اكتمل منزلا خاصا به وبضيوفه، وما أن عرف علماء وجدة وشيوخها مكانة الرجل الوطنية والعلمية حتى صاروا يتواردون عليه في منزله ليتدارسوا ويتناقشوا، وكان من جملة الذين يزورونه الفقيه المازني والفقيه بنسعيد والفقيه ابن المهدي والفقيه محمد الحسين والقاضي الشرقي زيادة على طلبة العلم والأشراف وغيرهم.

وحكى لي ابنه الحاج العربي المذكور سالفا والذي كان مقيما معه بوجدة أن والده استدعى العلماء والطلبة بمناسبة يوم عيد المولد النبوي عام 1340 هجرية، وظلوا معه اليوم كله، وهم جميعا في منتهى الانشراح والفرح بذكرى مولد المصطفى عليه السلام، وبينما هم على تلك الحال طرق الباب ساعي البريد، حاملا برقية وردت من «سلا» تخبر بوفاة والدي المرحوم بكرم الله سيدي أحمد القادري، وكانت بينه رحمه الله وبين القائد عبد الله بنسعيد صداقة ومحبة كبيرة، فخشي الحاج العربي أن يكدر صفو المجتمعين بمناسبة العيد، وأخفى أمر البرقية على والده حتى افترق الجمع، ولما أخبره

رحمه الله بوفاة السيد الوالد، تأثر تأثراً عميقاً وقال : ها هم الأحباب الصادقون ينتقلون إلى الدار الآخرة، فكيف الحياة بعدهم، أو كلاماً هذا معناه.

رسالة تعزية

وبالمناسبة أثبت هنا رسالة تعزية وصلت إلى أخي الأكبر الفقيه العدل سيدي أحمد ابن أحمد بن الشريف القادري من مترجمنا رحمه الله جاء فيها بعد الحمدة والتصلية : «سادتنا الأجلاء الأفاضل الأماثل أبناء أخينا وشقيق روحنا المرحوم مولانا أحمد بن مولانا الشريف سيدي محمد، ومولاي الشريف، ومولاي عبد الله، وسيدي أبي بكر ووالدتهم وأخواتهم وإخوانهم الأجلاء الأكرمين النبلاء سيدي الحسن وسيدي الحاج قدور ومولاي المكّي، حفظكم الله ورعاكم وسددكم وكفاكم، وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ما توالى حركات الدهر وسكناته.

وبعد فقد بلغنا انتقال كعبة المجد، وكوكب السعد، وزينة الدنيا، وبهجة العصر مولانا أحمد لدار البقاء، واكتحاله بمروءة الفناء، وإجابته داعي الله، فهذه الدنيا السماع أركاننا، ومزق أكبادنا، وأذهل عقولنا، وعددناه من أعظم المصائب، وأخطر النوائب، إذ موت العالم ثلثة في الدين، لاسيما إن كان مثل المرحوم من أهل الدين المتقين المخلصين.

لعمرك ما الرزية فَقَدْ مال ولا ملك يموت ولا وزير
ولكن الرزية فقد حرَّ يموت بموته خلق كثير

لكن لا نقول إلا ما يرضي الرب، وإن ذرفت لفقدته العبر، وحزن القلب، إنا لله وإنا إليه راجعون، لارادَ لأمره، ولا معقب لحكمه، فلقد كان والله رحمة لأهل تلك البلدة، وعين أعيانها، فبينما نحن نضمد جراحات أحمد، حتى فاجأنا حادث سيّدنا الأخ الجليل في المجد السامي والفضل النامي مولانا محمد التهامي، ثم حادث أخ الطرفين الصادق الأمين الصدوق الفرد السيد محمد زنيبر، فعلمنا أن «سلا» أصابتها العين في أعيانها فأعمتها، فلا حول ولا قوة إلا بالله، نسأل الله أن يعظم أجراً وأجرم في هذه المصائب، ويؤيدنا وإياكم على تحمل هذا النوائب التي جل خطبها، وعظم وقعها، وأن لا يرينا وإياكم ما يسوء، وأن يجعلهم في جوار سيد الوجود، ويغمرهم بفيض الكرم والوجود كما نعزيكم في خالتكم السيدة خديجة زوج عزيزي حمدان مسلماً على الأخ العزيز سيدي أبو بكر المريني وعزيزي حمدان ومعزّي في الجميع. ودمتم بسلام والسلام.

— في فاتح جمادى الثاني 1340هـ، محمد عبد الله بنسعيد

والرسالة تفيض إخلاصاً ومحبة وتقديراً للصادقين، وحزناً وألماً لفراقهم.

لقد بقي الباشا عبد الله بن سعيد منفيًا بوجدة مدة عامين كاملين، ثم سُمح له بالعودة إلى «سلا» حيث لم يمكث إلا مدة يسيرة حتى وافته المنية، ففارق هذه الحياة الدنيا يوم السبت 24 صفر الخير عام اثنين وأربعين وثلاثمائة وألف 1342 هـ الموافق لـ 6 أكتوبر 1923 وسنه ستون سنة هجرية (1282 - 1342 هـ). ودفن بالمقبرة المنسوبة إلى آل بن سعيد قرب ضريح الولي الصالح سيدي عبد الله بن حُسُون، رحمه الله ورحمة واسعة وجازاه على ما قدم لدينه ووطنه وأُمته من نصيح، وما بذل من تضحيات في سبيل كرامتها وعزتها.

ملحقات

شكاياته بموظفي الديوانة

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.
سيدنا الصدر الأجل، السياسي الداهية الأحفل، الوزير الأعظم سيدي محمد
المفضل غرنيط أمنك الله ورعاك، وسلام على سيادتك ورحمة الله، عن خير مولانا نصره
الله.

وبعد، فلا زائد على ما كتبتُ لسيادتك به في 28 من الفارط، في شأن أمناء
طنجة، من التهور والخروج عن الحد، سوى أنهم صاروا، لَمَّا تضايقوا ممن يقيد عليهم
القطع خارج الديوانة، يقومون السلعة التي لهم الغرض فيها بتمنيتها الواقع، ويجوزونه
لأنفسهم ويشتون في قائمة المخزن التاجر، ويقيدونها خردةً أو مأكولاتٍ أو حوائج لباس
النصارى (الخنشنة)، يأخذون أعيان السلعة من داخل القطع ويشتون الأقل ويتركون
القطع بالكلية، ويدخلون للبلد بعض القطع على شدها من غير فتح بالكلية.

مع أنه لا يخفى أنه إذا اعتاد التجار من الأمناء عدم الفتح للقطع يكتبون على
الأمور فتأتيهم داخل القطع التي يظن عدم فتحها ويدخلون بها (كُطْرَبَانُضْ) بدون
المسار وغيره، وتفتح بذلك الأبواب على المخزن أعزه الله، ويصير ذلك عادة في هذه
المرسى وفي غيرها.

وبه تَعَيَّنَ الإعلام، ولسيادتكم النظر والرأي الاسد، وعلى خدمة مولانا الشريفة
ومحبتكم والدعاء لكم والسلام. — في 6 حجة الحرام عام 1322 (11 يناير 1905).

ومنه : «فإنه كانت وقعت قضية قديمة زمن جد مولانا المقدس، وهي أنه كان
أمناء الممرائش وهو الحاج إدريس بنيس، أمر بجواز «ماري» من الديوانة ولم تفتح جميع
أجار «الماري» المذكور، فبلغ ذلك للعلم الشريف، فأمر به فطلع به مكبلاً للحضرة
الشريفة زجرا لغيره، وسدا للذريعة. — محمد عبد الله بن سعيد كان الله له.

ومنه :

«الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله.

بعد تقبيل حاشية بساط مولانا الجليل وأداء ما يجب لعل ذلك المقام من الدعاء والثناء الجميل يعلم سيدنا أعزه الله أن الأمناء المعنيين كثيرا ما تعرض لنا أمور متوقفة عليهم، راجعة لأشغال دار النيابة السعيدة، وإذا طالبناهم فيها، يتغيبون ولا يبالون أو يجيبون بجواب من لا يعتبر الأمور المخزنية، وطالما تعامينا وأغضينا عنهم الجفون، ولا يزيدهم ذلك إلا عنادا ومكابرة وكل هذا بمحضر المستخدمين بدار النيابة السعيدة، ومرأى منهم.

وساعته وجهنا لهم ثلاث مرات في قضيتين مهمتين، فأجابوا بجواب التعنت والإعراض.

وأعلمت مولانا دام علاه بهذا، حيث لم تنفع فيهم سياسة ولا إغضاء، ليأمر سيدنا أعزه الله بما يقتضيه نظره الشريف.

وعلى سعيد الخدمة، سائلا من مولانا رضاه، والسلام على كريم المقام ورحمة الله.

في 12 محرم عام 1323 / 19 مارس 1905.

خديم المقام العالي بالله

محمد عبد الله بن سعيد كان الله له.

الهوامش

- (1) ومضات مضيفة عن الحرب الريفية، ص 23.
- (2) نفس المصدر، ص 24.
- (3) نفس المصدر، ص 24.
- (4) لقد أصدر الأستاذ مصطفى بوشعرة مجلدين في التعريف ببني سعيد السلاويين ونبذة عن وثائقهم وتضمن كثيرا من الوثائق الهامة عن القائد بنسعيد ووالده الحاج محمد.
- (5) وقد استنتج الأستاذ مصطفى بوشعرة في المجلد الثاني من كتابه.
- (6) التعريف ببني سعيد السلاويين أن تاريخ كتابه هذه الرسالة قد تكون هو سنة 1904م.
- (7) كذا في الأصل.
- (8) المسألة المغربية، ص 125 و 126.
- (9) نفس المصدر عن عيَّاش.
- (10) نفس المصدر عن Bulletin du Comité de l'Afrique française.
- (11) هو عمُّ الأستاذ الصديقي بن العربي الكاتب الباحث المعروف.
- (12) كذا في الأصل.
- (13) كلمة غير واضحة.
- (14) ومضات مضيفة، ص 28.
- (15) مصطفى بوشعرة نقلا عن «جان كاني».
- (16) جاء في كتاب ابن عزَّوز أن الوزير الإسباني المقيم بطنجة أشار في رسالة بعثها إلى حكومته إلى وجود عبد الله بنسعيد مع الوفد الطنجي.

